رواية

تارتاروس

معجب الشمري

الطبعة الرابعة

تدقيق ومراجعة

ماجد مقبل

في تاريخ الأدب الغربي ظهرت عدة أنواع لتشريح الأعمال الروائية مما لاشك فيه أن الكتاب على مر العصور كرسوا جهودهم في حالة ابتكار رسائلهم في سرد الحبكة الروائية إلا أن الأدب الروسي امتاز بعدة أنواع لم يتطرق لها النمط الآخر في أغلب دول العالم، كما أن أكثر الكتاب في بلادنا العربية يجهلون بأن هذا النوع من الأدب قد اشتهرت به "المدرسة التابونية" وهي من المدارس الشهيرة بالأدب الروسي، كما أن تعدد الأنواع في مسار الحبكة الأدبية بين زعماء الأدب الروسي جعل له لون مختلف، واشتهرت أفكار "الأشتومان" بنوعها الخاص في العمل الروائي وهي أكثر الأعمال شيوعاً في القرن الماضي.

يتميز هذا النوع من الأعمال الروائية بانحصار الحدث العام للرواية في نطاق ضيق وغالباً ما يقع بين شخصين لتتواكب الأحداث بينهما بمنهجية التتابع ثم تتدرج الأحداث حتى تعود إلى ما بدأت به رغم أنها تنتهي دون أن تشعر، هذا النوع لم يتطرق له الروائي العربي بشكل مفصل وأكاد أجزم بأ، جرأتك يا معجب في الدخول إلى هذا اللون سيجعلني أراهن على أنك تصنع لك وطناً أدبياً ستتربع على عرشه

بين كبار الكتاب في الشرق الأوسط، قرأت هذا العمل وذهلت بمساراتك في منهجية التركيب التصوري للحدث، استطعت أن تقتص من جملة الكاتب الكندي الذي قال "كل لغة أم بلادها" لتبرهن أن فكرتك ولغتك أم لبلاد الغرباء أيضاً، تسير بالطريق الذي لم يعبر به من سبقوك وبجرأة شاب ينحني له القلم طوعاً؛ أراهن بأنك ستكون نقطة تحول إن حافظت على هذا التوجه يا بني.

بارك الله في قلمك ووفقك..

د. أيهم الدرعي

أستاذ النقد الأدبي في جامعة دمشق

"أرموا في تارتاروس كل من سرق من الأماكن المقدسة؛ أو من قام بالقتل الحرام أو من قام بعمل مماثل لهذه الأعمال؛ هؤلاء لن يستطيعوا الصعود من هناك أبداً" أفلاطون.

لا أريد إخراج ذاكرتي من محفظة التاريخ فأنا أكره الكتب التي يحيطها الغبار من كل الجهات؛ إلا الجهة التي كانت تتكئ عليها من الأسفل؛ كان لها الصفاء مكافئة على ما قامت به وبجدارة.

نحن نسير في الأرض دون أن نفقه ما تأخذنا إليه دهاليز أرواحنا؛ نجهل أن عالمها السفلي يدس لنا آثاماً لم ترتكبها نوايانا.. وأننا نعاقب دائماً بأخطاء الآخرين.

أعلم جيداً أن فرصنا بالحياة ضئيلة؛ وأن الحظ يمنح المرء فرصة حياة واحدة؛ لكنني أعلم أيضاً أن الأرض ليست تراباً وماءً والسماء لم تكن يوماً مطراً وسحاباً؛ نحن من صنعنا بأعيننا تحول الأشياء.. لقد اتخذنا ما نريده لتكتمل حياتنا على حساب أشياء كثيرة جداً؛ ربما لأن الجفاف شعور لا يميته البكاء؛ والحب لم يكن وباءً إلا في الساعة الأخيرة من الفراق.

الرجل في الحب يبحث عن كل جهات الضعف في أنثاه ليكسوها بالخذلان؛ والأنثى في الحب تستوطن كل جهات الرجل لتكسوه بالأمان؛ الرجل يملك قلباً يهبه لألف صديقة؛ والأنثى تملك وطناً لا تمنحه إلا لرجل واحد.

الرجل لا يبكي من أجل أنثى؛ والأنثى لا يوقف دمعها سوى رجل أ؛بته؛ الرجل كل الزمن متساو في عينيه؛ والأنثى لا تريد من الزمن سوى ساعة؛ ولأن الصدفة ميلاد تحتفل فيها الأرواح.. كانت الساعة هي الرابعة بعد منتصف فجر الحزن.

تجلس في الركن الذي اعتادت عليه بمنزلها.. كما كانت تفعل دائماً حين تشعل بالملل؛ بين يديها أوراق بيضاء وقلم لم يبق من حبره إلا النصف؛ تحاول أن

تبرهن لفكرتها الروحية أن حبال النسيان طويلة؛ وأن المرء وإن ساء به السبيل لابد وأن يعود إلى مجده يوماً ما.

لقد برهنت للعالم الذي تعيش به أنها لا تجيد التوقف عند البداية؛ ولا يقنعها الرضى في أرض الريح؛ وأنها مجازفة حد قدرتها على أن تصنع من نظرة عينيها عار قبيلة وشتات مجتمع كافح والدها كثيراً من أجل أن يجمعه.

هي ابنته المدللة.. رغم أنه يكره النظر إلى فتاة عارية تصاحبها؛ وصاحبة علو تتباهى بذاتها كثيراً؛ تقرأ ما يسكن في أعشاش العصافير وتخبئ خلف الزمن أغنياتها.

تردد نصاً لا يفارق لسانها وتقول فيه:

"لا يدرك الإنسان كم هو قادر على اختزال مشاعره في معركة الحب إلا حين يمارس طقوس جنونه في كتابة ما يسكن هوية الانتماء داخله".

تكره أن تقرأ الأخبار في الصباح؛ وتجيد تتبع قبيلة الشوكولا من أول نوع في المشرق وحتى آخر أنواعها التي تصنع في باريس؛ ماهرة في اختصار الحديث كلما أصبحت في مواجهة مع الخجل؛ تحب أن تكون بسيطة.. لكن مكانتها الاجتماعية تمنعها من ذلك؛ فصاحبتها "آسيا" ستعاتبها كثيراً إن لم تريد فستانها الليلكي القصير لتبدأ ركبتيها مع فخذيها اللؤلؤيين بمواجهة الفتنة وخوض مبارزة في ساحة الإعجاب؛ وستعاتبها "آسيا" إن لم تشتر كل ثلاث أيام فستاناً آخر وأقصر ليؤكد نيل المبارزة القادمة وربحها منذ الآن..!

لا يعجبها أن يناديها أحدهم باسمها الحقيقي.. ودرءً لكل تلك المفاسد من تعكير لصفوها وإثارة غضبها قررت أن تخبر الخدم في قصرها ألا ينادوها إلا باسم

"سمو". راودتها الأفكار في أن تقوم بتغييره إلى مسمى آخر؛ لكن عنادها أجبرها على إكمال ما اختارته دون رضى أو قناعة.. فقط من أجل ألا يقال أن "سمو" قد غيرت قولها.

تعصف بها سلسلة أحاسيس متأرجحة تأخذها أحياناً نحو البكاء بلا سبب يذكر؛ أحياناً لا تعرف إلا أنها بحاجة خلوة مع نفسها أمام نوافذ الحياة؛ ولأن الحياة التي استحوذت على وقت سمو لم تك حياة احتياج أو بحث عن الثراء. ولم يكلفها الأمر أن تسأل نفسها إلى أين سيؤول بها الحال بعد سنين كما يفعل أولى الأحلام.

سمو تدرك جيداً أنها ابنة رجل جمع من المال ما يكفي لأن تصنع منه دولة أخرى غير تلك التي صنعها في الخفاء تحت أنقاض الصمت. ولم تكن أمنياتها كثيرة كما هي أمنياتي؛ فأنا تمنيت لو أنني كنت قادراً على الحياة أكثر من مرة.. بينما هي لا زالت تتمنى لو أنها تملك مجرة في الفضاء.

لم يكن مبتغاي ذلك طمعاً في العيش؛ فأنا وسمو على عكس ما تتصوره الطبيعة.. هي كالمهر التي ترفض أن يقوم بترويضها فارس عنيد فتثور جنوناً عند كل محاولة له؛ لا تحب أن تمسك أوراقها البيضاء ثم يداهمها رنين الهاتف بنغمته التي أحضرت مطربها من دولة أخرى ليقيم حفل ميلاد أختها الصغرى قبل عدة أشهر.. حتى تقوم بحفظها كحق حصري نظير المال الذي دفعته فقط لتتباهى به أمام الحضور؛ وبإحياء ذلك الحفل في قصرها الفاخر.

أخذت هاتفها بيد بينما هي مشغولة في مسح أحمر شفتيها باليد الأخرى؛ سقطت أوراقها منسدلة من حضنها الذي يكسوه رداء صنع خصيصاً لها في باريس.. ثم أجابت بغضب:

- نعم..؟

- مساء الخير سيدتي..

- أي مساء هذا؟ الساعة الرابعة والنصف..!

- ههه؛ مهلاً ما بك..؟ ألست قادرة على معرفة صوتي..؟

- من أنت..؟

- رجل يريد أن يعرف هل كان مجنوناً حقاً؟

- شامخ..؟ أنت شامخ..؟

- جميل أنك تذكرت صوتي، وإلا لعدت أدراجي من حيث أتيت.

والأجمل أنك عرفت من أكون وإلا لاضطررت إلى أن أغلق الخط.

- لحظة.. شامخ؛ دع عنك هذا الحديث وأخبرني كيف الآن تحديداً؟ ومن أين جئت؟

- سأخبرك؛ فأنا لم أتقاسم الغياب مع قلبي كما فعل جسدي..

أعلم أن قلبك مليء بالعتب والغضب والبكاء.. لكن لا حول ولا قوة لقلبي إلا أن يغيب؛ لقد كانت جميع الأشياء من حولي ترفض أن أجيء ولو بخبر عقيم.

سأخبرك يا سمو؛ لكن من الجميل أنك لا زلت مقيدة بصوتي العجوز..

- صوتك الذي أوشك على أن يجف من ذاكرتي!

- تعلمين أنني لا أرضى أن أكون في الفصل المهمل يوماً.. أم أنك نسيت ما قلته لك بل الغياب..؟

- أعرفك جيداً.

أنا لا أنسى يا شامخ؛ لكنني مصدومة الآن.. قل من أين أتيت؟ وكيف؟ أين كنت؟ الأسئلة تتزاحم في ذاكرتي!

- ظننت أن ذاكرتك جعلتني في قائمة النسيان..
- ما كنت أبكي غيابك لتأتي وتقول هذا؛ لقد ارتويت كثيراً من الجفاف.
- ربما أقول ذلك لأنني رميت بكل أشيائي القديمة في بئر النسيان.

بئر تسكنه الكثير من أحلامي اليابسة رغم أنه لا يفرغ من الماء..

بئراً تفوح منه رائحة جثث أمياتي القديمة وكأنها اغتيلت وأزهقت أرواحها في أصعب الطرقات؛ رميت بكل أشيائي القديمة لأنني أحتاج أن أكون رجلاً لا وصول إليه في حال ارتكابه لجريمة ما؛ ألا تعرفين أن المحققين ضد كل شيء ومع شيء وحيد وهو أن الوصول إلى الجريمة سلسلة لا تنتهي إلا بعد التتبع!

- إذاً أنت رجل جرائمه كثيرة..!
- بل هي جريمة واحدة؛ لكن لو حاول أحدهم تتبعها سأصبح في مأزق كبير.. كبير جداً.
- أعلم أنك لن تخبرني عنها، لكن سأتركها أمنية معلقة في عنق السماء: أن يأتي يوم وتتحدث لي عنها.
- جريمتي الوحيدة والتي أخافها هي أنني لم أرتكب في حياتي ما يجعلني رجل سوء أو رجلاً ساقطاً؛ جريمتي أنني أ؛ببت كل تفاصيل الحياة وعشتها كما كان ينبغي علي أن أ عيشها دون أن أكترث لما سيحصل لي من ألسنتهم.. بدءً بأساليب النداء وحتى آخر الجمرات التي رموني بها في أرضي؛ أنا رجل

أبسط من أن يكون في هذه الحياة، لكنني أكره أن يشاركني بي أحد؛ لا أحب أن يستخدم لساني سواي..

- ويتحدث عما تريده وعما يسكن جوفك.. أعلم ذلك يا شامخ؛ لقد قلتها لي كثيراً قبل أن ت غيب.!

أخبرني إذاً، لماذا..؟

- بل أنت أخبريني.. كيف عرفت صوتي بهذه الطريقة..؟!
- لا أفهم شيئاً.. كل ما أفهمه أني أحب أن أ نصت لك وأنت تشعر بالغيرة حتى من النسيان.
- لكنني لا أغار من النسيان بل أكرهه.. لأنه يخيفني.!
- نحن هكذا.. لا نغار إلا من الذي نخافه، هل تصدق..؟

كنت أحتاج أن أتحدث معك في فترة غيابك.. وكلما تذكرت أنك وهبتني هذا الغياب أعود وأستغفر عن خطايا الحنين، حاولت طويلاً أن أكرهك؛ أن أختلق الأعذار لأنسى؛ أن أدس في ذاكرتي حقيقة أنك رحلت بقرارك كي لا أحن إليك.. وأحياناً أتشكل على نبوءة خوفي وأقسم على نفسي أنها لو كانت تعلم أين أنت ما تركتها تتردد لحظة أن تتجه إليك ولو كانت المسافة بعيدة جداً.

- لكن معاودتك بسيرة يا سمو ولم تفعلي شيئاً يخر عن حدود العقل.. كل ما في الأمر طائرتك وقائد يتلقى أوامرك.. فأنت ابنة الكلمة المطاعة؛ وأنت أيضاً أنثى الدلال؛ وأنت أيضاً تلك القادرة على سكب الزمن في إناء الاختصار كيفما شئت. أخبرتك كثيراً يا سمو أنني لا أنتظر ما يمكنك فعله

ما أجلي؛ أنا أحتاج أن أرى ما لا تستطيعين فعله؛ أحتاج أن أراه يفعل من أجلي.

- هذا أنت.. تطلب المستحيل ولا يرضي غرورك شيء..!
- أنا لا أطلب المستحيل لأنني أدرك جيداً بأنه لعبة طفولة.. لعبة مارسنا عليها طقوس البناء والهدم كمنازل الطين في طفولتنا.

أنا لا أطلب شيئاً لا وجود له في الحياة..

لقد أخبرتك كثيراً أنني أكره أن أسمع هذه الكلمة.. كلمة "مستحيل"..؟

- عذراً.. لم أقصد أن أسيء إلى مجد سمعك سيدي شامخ؛ لكنني أحتاج إلى تأويل لكل ما يحدث الآن..!

كلما حاولت أن أطوف في مقهى الحب لأجلس معك على طاولة الحديث عن ما أصبح الحزن يرمينا به فتقول لي:

لا.. أنا لا تكفني المقاهي فهي صغيرة جداً على أن تأخذ مني الحديث عن مشاعري؛ ونحن لا نبكي لنشعر أنفسنا بالذنب.. بل نبك لتغتسل أرواحنا من خطايا الأرض.

نحن لا نتفقد أعيننا بعد أن نفقدها في غار النوم لأننا على يقين بأنها لا تخون.

كلما حاولت أن أريك أن الرياض وما يسكها تحت كلمة من شفاهك تنتظر أمراً؛ قمت بتوثيقي في قيود الصمت قائلاً:

أنت تعلمين جيداً بأنني لا أهتم إلا لشيء يسكن أوردتك؛ وله ذات المهمة التي يقوم بها عندما يطوف الدم هناك ليستظل باللجوء في دوامة الاستمرار دون أن يدرك مخرجاً يتحدث به عن لونه أو شكله أو حتى ما يشعر به.

كلما حاولت أن ألون لك وجه الحلم لتنال أكثر مما تريد.. تعود وتقول أن أكثر ما يجعلني أكرهك هو ثراؤك.

كلما حاولت أن أخبرك أنني لا أريد من الحياة سواك تعود لتصرخ في وجهي وأنت تقول:

كيف تطلبين نفسك منك..؟! ألم تدركي أنك الحياة بعد..؟

كلما حاولت أن أفتح نافذة ليغرد منها عصفور يحمل خبراً عنك قلت: أنا لا أريد أن تنقل أخباري إليك؛ أريدها أن تعيش في مسمعك بلساني..!

ماذا أفعل..؟! وأنا مجردة من لون الحديث معك في كل شيء؟

ولا ينتهي العتاب إلا بإغلاق الهاتف كما تفعل دائماً.

انظر ماذا جعلتني أفعل.. لم تتغير يا شامخ؛ هذا أنت وهذه أنا.. تتركني دائماً أصارع الدمع من عناء محاولة كسب رضاك.

لم أطلب منك سوى الرضى فأنا بايعتك على حياتي..

هل تذكرت كيف كنت أقولها لك ذلك المساء عندما سألتك:

هل شاهدت المبايعة على التلفاز..؟

- وأجبتك: نعم؛ كان والدك جميلاً بينهم.

فرددت علي بسرعة:

والـدي انتهـى مـن المبايعـة هنـاك؛ وأنـا الآن أبايعـك علـى حيـاتي بالسـمع والطاعة.

أتذكر هذا كله جيداً؛ لكنه لم يعد يتسع لرئة الحديث يا سمو!

- هل تتذكر كل هذا..؟ ما الذي حدث لنا الآن يا شامخ..؟

ما الذي غير مسار الأشياء في حياتنا..؟

أنت من علمني أنه في الحب فقط تخلق روح لتسكن جسدين ولا تخرج إلا بعد الموت – ليس لأنها انتهت – بل خوفاً من أن تدفن مع أجسادنا فيمحوها التراب بعد تلك السنين.

- سمو؟ هل تحبينني أم تحبين ما علمتك إياه..؟
- وهل تعلمت أن تسأل هذا السؤال لأنثى تدمن تفاصيل جنونك..؟
- وهل تعلمت أن تجيبي على السؤال بسؤال..؟ لا تكملي.. أريد فقط أن تتأملي كيف أن الأحاديث التي تسكن طاولتنا لا تكفيها ساعات أو سنين.

ربما لو كنت قادراً على أن أتدثر برداء من الغيم لأحكي: لسرقت من السماء سحابة.. لأني متيقن جداً أني سأسرق ثانية وثالثة ولن أنته.

- لماذا اخترت الغيم تحديداً..؟
- لأنه أيضاً لا ينتهي.. مثل حكاياتي عنك في الحب؛ مثلك تماماً.
- إذاً دون أن تسلب غيمة من السماء.. أخبرني:

هل كنت راض عني حقاً..؟

- في الحب يا صغيرتي لا يخلق إلا الرضا؛ أما عن الذي يسكن في اتجاهه المعاكس فلا وجود له.

- لكننا لا نتفق دائماً..؟

- نحن لا نتفق؛ وقد تتعالى أصواتنا على بعضنا ذات غضب.. وأحياناً قد ينتهي بنا المطاف إلى أن نوصد أبواب اللقاء ببعضنا حتى لا نتحدث؛ نحن عرب يا صغيرتي والعرب شرعوا الصراخ وسيلة للهرب من المواجهة..

هل تعرفين كم عاماً نحتاج للتخلص من دنس تاريخنا الذي أصبح الآن ملتصقاً بنا وسيربط ألسنة أحفادنا بعد سنين..؟ "العرب لم يتفقوا على شيء إلا على أن يختلفوا".. لكن ذلك لا يعني أننا ننتهي أو أن أحدنا يكره الآخر؛ لا أبداً.

الرضى والمغفرة لا يأتيان إلا إذا مس القلب شيئاً من الكره؛ بدءً بأصغر مراتبه حتى أعظمها.

يا عزيزتي؛ الرجل في الحب كائن يشبه لعبة الشطرنج.. قد يقتل ملك الكبراء فيه جندي تقدم خطوة نحو عينيها.. فغض البصر دون أن يتخذ وسيلة يحمي بها قلعتيه.

- هل تعلم لماذا أنا مجنونة بك..؟

- ربما لأنك تشعرين بالذنب تجاه رجل جن بك منذ زمن. رجل التقاك على شرفة الجنون أمام مقهى الحب..

لطالما كنت أكره أن أرفع عيني لأرى أحداً وأنا أملك كتاباً بين يدي؛ ليس لشيء سوى أنني أكره الفواصل.

في ذلك المساء كنت تشمين بخطى سريعة جداً.. لا تنظرين إلى الخلف وعباءة السحر تكسو جسدك؛ لكن سقوط هاتفك جعل عينك تقع على عيني وأنت منحنية لتأخذيه من الأرض.

كنت أسأل نفسي:

كيف لشيء في الأرض أن يحول بيني وبين كتبي..؟ كيف لثواني عبورك والمسافة التي تفصل بين سقوط ها تفك ووصولك إلى سيارتك أن يجعلا حكايتنا الطويلة بداية لا تنتهي..؟ لقد صنع هذا السؤال كل قضيتنا يا سمو..

كنت أحتاج فقط لإجابة حتى ولو كلفني ذلك الأمر حياتي؛ لم يحدث في تاريخي أبداً أن يفصل بيني وبين زحام الكلمات أمر ما؛ لم يسرقني أحد منها قبلك، ولم يتلصص على ذاكرتي ليجر منها حبال القراءة بهوس مروره إلا أنت، عدت لأقرأ محاولاً أن لا ألوم ذاتي كثيراً وأن لا ألقي للأمر أهمية تسكنه قائمة الأولويات في ذاكرتي؛ لكنني ما إن أكملت ثوان حتى رفعت رأسي وأنا غارق في ثورة إعجاب لا تنتهي.

لأول مرة يحدث أن تهيج عاصفة أمامي وأنا لم أغمض عيني عن ترابها.

أغلقت الكتاب وأنا أضرب بأضلعي تلك الارتجافات التي لا أعرفها ولا أعلم كيف جاءت إلي في هذا الوقت من الحياة.

كنت لا أريد أن ترتدي طوق الرحيل وأنا أعلم أنك إن ذهبت لن أحظى بعودتك مجدداً..

كان الخوف يتلبس جسدي عن حقيقة غرابتك؛ ويقيني أن لقاءنا هو مجرد لحظة عبور لن تتكرر فأصبحت مملوء بالأسئلة:

ماذا إن التقيتك ذات صدفة فكيف أعلم حينها؟

اتجهت إليك بخطى سريعة؛ كان الكتاب في قبضة يدي اليسرى بينما يقف جانب باب السيارة المفتوح رجل داكن البشرة.. يرتدي ثوبه الأبيض وكأنه يقول إياك أن تقترب.

المعضلة الكبرى التي واجهتني هي أنني لا أستطيع أن أدعك ترحلين؛ وأخاف أن أصبح في عينيك رجلاً يمتهن الانتظار في ساحة مزاد القلوب الحمراء؛ خشيت أن يخفت ضوئي بضغطة زر واحدة من أنامل الرفض.. وأن تتعثر قدماي بألغام خوفك بعد أن تتفجر بي ألف دولة من اليأس والاحتلال؛ خشيت كثيراً أن تكوني أنثى محتلة ومحكمة بالقيود..

وأن أقف طويلاً أمام هذا المساء؛ ألقي على وجه ظلامه لومي وأنا أنزف القهر من ذاكرتي.

خشيت أن يصور لك أنني فارغ من الحياة وأبحث عن ضحكات ليل سقيمة أشبع رغبتي بها.

كان هنالك شيء ما أحتاج أن أتحدث عنه، عن هيئته، عن لونه وكيفية أذى جنونه الذي يعيث بي، لكنه لم يكن في يدي حينها.

صعدت إلى سيارتك المنهكة برائحة عطوراتك واتجه سائقك ليقود قطة الحديد الفاخرة.

سابقت الزمن كأني أتوسله أن يمنحني قدماً ثالثة لكي أستطيع الوصول إليك؛ أسرعت بخطاء ثم طرقت النافذة وأنا أقول:

"صدقيني لست طائراً يرفرف بجناحيه في كل سماء".

فتحت النافذة وأنت تنظرين إلي بصمت مريب؛ صمتاً تحاصره كل جهات الخوف بأرضي من شمالها حتى آخر الجنوب.

أشحت نظري كي لا أرى عينيك وأنا أتحدث؛ لكانت السماء تجهض من رحمها نجمة أخرى.

أدت عيني حتى التصقت بمرآة تسكن عدسة عينك الزيتية وأنا أقول:

"لست متسولاً ولا رجلاً طائشاً.. لكنني أحتاج مقصاً لكي أقصر طول الأسئلة المتراكمة في جوفي".

نظرت إلي حينها..

- نظرت إليك وقلت:

تفضل ولا تطل؛ فأنا أنثى لا تحمل البراءة إن وقفت حتى في صلاتها.

ماذا تريد؟ فالأفواه من حولي تحاول أن تتحدث عما لم يكن؛ كيف بشيء كان وحدث؟

ثم ماذا أقول لهم إذا قالوا أني تحدثت مع رجل غريب..؟

بربك اختصر المسافة ولا تجعلني عرضة لألسنة العالم من حولنا.

- لن أنسى عينيك المخلوقتين من الحزن وأشيائه يا سمو.. سألتك حيها:

لماذا لم يكن للدماء التي تسكننا حق الانتماء كتلك الأسماء في هوياتنا؟

هل لأن الأسماء لنا؛ ودماءنا لمن نحب فقط..؟

أعلم أنك على عجالة؛ لكنني والله لم أوقفك من لغاية نفس طائشة ولا لأنني أبحث عن سبيل لقاء.

كنت أحتاج إجابة على أسئلتي البائسة، فالحزن في عينيك حكاية لم تبق لي عقلاً يمنعني عن ما أفعله الآن؛ أريد أن يكون لي شرف الإجابة وإن كلفني ذلك الكثير.

أريد أن أعرف وبهذا المساء في أي سبيل كان، حتى وإن احتجت إلى متابعتك إلى المنزل لأعرف أين هو لأعود غداً وأطرق الباب ثم أنتظر إما الإجابة وإما القتل..

عرفتك في هذا الوطن وأنت غريبة عنهم؛ تبعتك حتى كانت صرختك في وجهي فاتنة وأنت تقولين "هل أنت مجنون"..؟

حينها أصبحت المعادلة صعبة جداً..

لم أتمن سوى لو أني أستطيع إخبارك بحجم حاجتي للإجابة على سؤالك، هل أنا مجنون حقاً؟

- هل تصدق..؟ لا أعلم ما الذي دفعني لأسألك: من أنت..؟ كل شيء فيك كان غريباً.

ترفع بصرك لا تريد النظر إلي وأنت تتحدث وكلامك لم يكن معسولاً بحجم رغبتك في مسابقة الزمن كأنك تركض في حلبة مستديرة يملؤها الخوف..!

خوفك من المستقبل.. وخوفك ألا أفهمك؛ وخوفك من الماضي.

حين سألتك من أنت..؟ لم أسألك لتطل حبال الأسئلة بل لتخجل من نفسك فتبتعد؛ لكنك لم تفعل؛ بل لازلت أتذكر بعضاً من إجابتك الحمقاء..

لن أنسى طولها أبداً وأنت تسردها قائلاً:

أنا رجل مليء بالأسئلة ولا يعرف إجاباتها سوى حزناً يسكن عينيك؛ رجل لم يولد بتاريخ ولا تعرفه الطقوس إلا برداً تكسوه الوحدة عن شتاء أعينهم.. أنا رجل يختبئ عن الحب خلف جثث الموتى.. رجل لا زال منذ سنين وشكوى عينيه قابعة في أدراج المحاكم من أوراق يملؤها الحبر، تنتظر فصلاً يحكم بينها وبينه؛ لكن "خسارة القضية" كلمتان يربحهما كثيراً.

رجل ليس بقارئ فنجان، لكنه لا يستطيع أن يفرط بك حتى وإن تبع خطاك إلى آخر هذه الأرض.

- هههههه حينها أنت لم تستطيعي أن تكملي المواجهة عندما أدرت وجهك وأنت ترددين غاضبة: ابتعد.. ابتعد؛ لا أستطيع التأخر وأنت لا تجد ما يشغلك؛ "كتاب بين يديك" اذهب واقرأه لربما كان ذلك أفضل بكثير.

- كنت أقرأ يا سمون، ولم يفصل بيني وبين الكتب أحداً منذ سنين غير أن مرورك جانب المقهى جعلني رجلاً آخر.
- رجلاً يشق الورقة من منتصف كتابه كالمجنون الهارب وبدون رقمه عليها في الأعلى ليمنحني إياها وهو يقول:

لا أحتاج جسدك فأنال ست حيواناً يبحث عن شهوته..

ولا أحتاج لسانك ليهبني كلمات الحب والدلال.. ولا أحتاج عينيك لتسكبا من أجلي دمعاً يغمره الخشوع..

أريد إجابة لسؤال واحد أنت من أخبرني عنه: هل أنا مجنون حقاً..؟

- أتذكر كيف أنني غضبت حينها وأمرت السائق أن يمضي بعد أن أخذت الورقة..

بالمناسبة؛ ربما لا تعرف حتى الآن.. لكنني لم آخذها من يديك لأنك أقنعتني بما قلت لي بل أخذتها كي تكف عن ملاحقتي.

لم أفر كثيراً بما قلت لي حتى عدت إلى المنزل واستلقيت على سريري؛ اجتاحتني ملامحك فجأة دون حديث.

سألت نفسي: هل هو مجنون حقاً..؟

ربما كان كذلك، فالجميع من حوله يتحدثون وهو صامت وحده.

والجميع يضحكون في مقاهي اللقاء وهو يبتسم لكتابه المصاب بوعكة الحديث، لا أحد حوله سوى ذلك الكتاب العقيم، ولم أكتف بالرحيل من أمام المقهى ذلك الوقت..

اجتاحني الفضول لأرى شيئاً فيك؛ فعدت دون أن تعرف ذلك من الشارع المقابل ونظرت إليك بعد أن عدت لتجلس على الكرسي الأحمر وأنت تمسك كتابك لتقرأ وحيداً.

مضيت وأنا مملوءة بالأسئلة وكأ، عدوى استفهاماتك انتقلت لي، أريد ألا أفكر فيك لكنني لم أستطع ذلك. سألت نفسي ألف مرة وأنا أقول:

هل كان يشبههم حقاً؟

كيف وأنا رأيت كل شيء بعيني.؟

ثم أرجع وأحاول أن أضع لي استنتاجات كثيرة.

خشيت من التفكير فيك وخشيت نسيانك أكثر، كنت أصارع جسد الخوف الثقيل وأنا أحاول أن أهزمه لألا يأخذني بعيداً عنك..

وضعت بعين الاعتبار مشاهد مميتة:

كأنك رجل زائف..

وأنك متزوج وطريح على فراش العجز عن فهم حبيبتك؛ فخرجت للمقهى كي لا تتحدث مها وينمو الاختلاف بينكما..

انتهيت بعد أن أصبحت تائهة في كل مشهد أضعه أمام عقلي لأفقد منه ويزيد ضخ الجنون بقلبي أكثر.

كنت أعلم أن الصدمة في الحب تخلف بعدها دماراً شاملاً لا تتحدث عنه أوطان السلام بحجم أنها تفترش أجسادنا لتقابلها أمة الحب بأرواحنا وتزول بعد أن تنهش منه كالسرطان.

أمسكت قلمي وأنا أرسم خطاً ينتصف الورقة البيضاء حتى قسمتها إلى نصفين..

في النصف الأيمن منها كتبت ربحي معك.

وفي النصف الأيسر كتبت ما سأخسره بعد أن أعرفك.. كنت قد قررت في خيالي أن الأكثر سيحدد اتصالي بك من عدمه.

تذكرت الورقة التي أخذتها منك؛ ثم عدت إلى حقيبتي وأخرجتها بعد أن تأملت ملامحها؛ كانت جهتها الأخرى مملوءة بالكلمات.. فعلمت أنك قد مزقت جزء من الرواية؛ وكان الجزء المقتطع منها جملة قرأتها كثيراً حتى كان

لها نصيب الخلود في ذاكرتي "نحن في الحب لا ندرك أننا نفتح الأبواب؛ لا ننتظر السماح من أحد لندخل؛ ولا نستطيع اختيار وقت الخرو...."

حرف الـ (ج) لم يكن معي؛ كان في كتابك فهو لم يرد التخلي عنك يا شامخ.

أدركت حينها أن سراً ما يجعل الأشياء من حولك تعلق بك وأنك لم تجعل لنفسك دائرة منعزلة عن الجميع إلا لأنك لا تريد أن يكشف سرك..

إلى أن سقطت في مكيدة وضعتها لك أنا دون أن أعلم عنك شيئاً ولا عن نفسي.

عندما مشيت أمامك أنت وأوراقك المنهكة في المقهى كنت أسأل نفسي ألف سؤال في أقل من دقيقة..

لكن الإجابات تكره أن تسقط في مخيلتي ولو لثان قليلة؛ ربما لأن جميع أجزائها كانت فارغة منك.

أمسكت هاتفي ودوت فيه رقمك المكتوب على الورقة؛ لكن شيئاً ما كان يمنعني من الاتصال حتى غفوت دون أن أشعر بنفسي.

يوماً يتلوه آخر؛ حتى مضى على لقائنا أكثر من أربعة وثلاثين يوماً..

احتجت حينها أن أسأل أحدهم دون أن أخبره بما حصل بيننا...

اتجهت إلى المجلس السفلي لاجتماع العائلة أمام التلفاز؛ لم أجد سوى والدي وبين يديه جريدة يقرأ أخبارها كالمعتاد..

جئت من خلفه وكان الخبر الذي ينتصف غلافها:

آخر ما توصلت إليه الجهات الرسمية بشأن كارثة سيول جدة.

قبلت رأسه دون أن أخبره أن شعره الذي بات يهرب عنه السواد قد تكاثر..

وأنه عقد صلحاً مع المشيب ليحل بديلاً عنه..

جلست قربه؛ ثم نظرت إليه لأسأله عما يقرأ؛ أجابني بعد أن أرخى عن عينيه نظارته المهترئة من صفحات الجرائد ومن الأخبار المعتقة برائحة الاختناق.

قال: لا شيء مهم؛ أقرأ عما حصل بأولئك المساكين؛ أعلنوا اليوم عن وفيات وجرحى ومتضررين كثر".

- كرهت حينها لا مبالاته عندما أخبرته عن حملة قام بها متطوعون ليجمعوا التبرعات ويشتروا ما يكسو به العراة من ضحايا الكارثة ويطعم جياعهم ليدفع غصة أولئك الذين سقطوا من هول الصدمة.

نظر إلي دون أن يلقي للموضوع أي اهتمام، ثم أجابني "مساكين هم.. لكن لا عليك يا ابنتي فلا أحد يموت من الجوع، إن الله معهم".

- والآن فقط وبعد هذه السنين أدركت كم أنا غبية.. لأنني تأثرت فعلاً بما قال؛ ولم أكلف نفسي أنا أقدم لهم ولو قليلاً مما أملك....

لأستطيع أن أغفر لنفسي عندما أنوي الرحيل إلى سباتي الأعمق؛ كنت أرى في عينيه أشياء كثيرة كلها تطوف حول اهتمامه بنفسه وبنا دون أن يرى العالم من خلف ستار الحاجة والأذى وستار الوجع الذي يرتديه ويطوف به الناس؛ كان يعلمني دائماً ألا أكون عاطفية وأن أتعامل مع هذه الحياة بصيغة النسيان أكثر من صيغة التأمل ومواجهة الحقائق، حتى في طريقة حديثه عن الحياة والموت والنعيم والجحيم؛ لم يعرف يوماً أن يختار طريقته في التحدث معنا..

لقد كان أكثر ما يجعلني لا أطيق العيش هنا هو أنه مثلهم تماماً، يرهبون من النار ولا يتحدثون عن الجنة؛ يقولون لن يصل النجاح إلى باب منزلك وهم لم يفتحوا له نافذة واحدة..

يفعلون كل شيء كما يحبون.

في الأمس كان شاهداً على وجوب العون والآن يستنكر العمل به.

صعدت بعدها إلى الأعلى دون أن أتحدث معه في شيء آخر؛ ودون أن أجد من يدلني على طريق النجاة منك...

بدأت حينها أعود بذاكرتي من الصورة الأولى وحتى آخر خطوة مشيت بها..

ابتدأ بجرأتك على الوقوف أمام أعين المارة، وانتهيت بسؤال خير:

هل كنت مجنوناً حقاً.؟

- وهل امتلكت إجابة على سؤالك هذا الآن..؟
- ربما نصف الإجابة كانت بين يدي منذ ذلك الوقت؛ لكنني أخفيتها من أجل قداسة الحديث الأول.
- نعم؛ كنت أعلم ذلك.. لقد أخبرتك في أول اتصال لك أن العرب اختلقوا الصفر للفراغ..

وفقهوا أن الواحد للامتلاء..

والأنصاف وسيلة للهرب عما لا يشتهون.

- العرب لم يعلموا عما حدث في أول اتصال بيننا يا شامخ، هل تتذكر تفاصيل مكالمتنا جيداً..؟

- وهل ينسى طوق الياسمين الذي كنت أعلقه في حجرتي وأنا أضع جانبه مسبحة تملؤها الدوائر البيضاء، ممررة في خيط رقيق، أسحب منها كل يوم واحدة وأضعها في الجهة المقابلة..

أحسبها عن الأيام التي تمضي دون أن تتصلبي بي.

أعترف أنني انتهيت منها ثلاث مرات وكان اتصالك أول الرابعة...

اقتربت حينها جداً وأنا أعاتب مسبحتي لأخبرها أن رحلتي معها انتهت وابتدأت رحلتي معك الآن. ظننت أنني فعلاً لن أعود لتلك المسبحة المملة؛ لكنني لم أصبح قادراً على المضي وتجاهلها فبدأت برحلة أخلى وأنا في باحة الانتظار من أجل أن أسمع ما يغرس خناجر اليقين بخاصرة فضولي..

لم أكن أنتظر إشعال نار "حب" متبوعة بكاف الانتماء وأنت تتحدثين لي عن حبك.

كنت أنتظر أن تمضي السنين لتخبريني من أنا؟

وهل كنت حقاً رجلاً مجنوناً..؟

- بل أنا من كانت تنتظر السنين لتقفز حواجز الزمن المرتفعة بك.

كنت أنتظر أن ألوث الهدوء في حياتي بصخب عشق حبسته عن أعينهم سنين طويلة.

"كنت أنتظر الحياة – ورغم كرهي لها – بذات الحب؛ ياه كيف اجتمعا في صدر أنثى معاً".

- أكثر ما يجمع شتاتنا الأضداد.. فأنت لو لم تكوني ضدي في البدء لما اتصلت أبداً؛ وإن كنت تريدين أن يحبك رجل فاكرهيه حد الجنون.

- يا سمو؛ لم أتصور أن تنصتي لي وأنا أخبرك أن الحب لص مقدس يشبه خبز والدتي بعد أن يفوح مع رائحة الفجر..

فالاثنان يجيدان سرقتنا؛ مع أن لكل واحد منهم طريقته الخاصة.

الاثنان لا ينتهيان إلا بعد الموت، ولا يكتملان إلا بعد نار حارقة.

هل تصدقين..؟

هي من كانت تصنعه لي كي أكبر.. وفي كل عام أكبر فيه تحذرني من كيد النساء؛ هي من علمتني ألا أنسى.

- لكنك لا تنسى أبداً.. حتى الذي مضى عليه سنين الذكريات، المقاهي، وحتى المكالمة الأولى..

- كيف أنسى أول مكالمة يا سمو..؟

كيف أنساها وأنت التي زرعت بها خلودي في أرضك؛ كأنك تقولين "لك قطافها وأنا جنة ستخلد فيها".

انتظرت كثيراً وأنا أتخيل أنك لن تتصلي..

صليت من أجل أن يجيب الله دعائي.. وسقط الدمع بظلمة ليلة حالكة؛ توسلته وأنا أبكي عاجزاً عن فعل شيء..

حتى آمنت أن انتظاري مصيبة لا مخرج منها أبداً إلا إلى الذبول..

لم أجد ملجأ يقيد قلقي حتى فرغت رئة الصبر وأنا أقول: ستأتين ولو بعد حين؛ ألم يقل الله سبحانه "وبشر الصابرين"..؟

اكتسيت حينها بدثار الحلم ولم أفق إلا على هاتفي الذي يستقبل اتصالاً من رقم مجهول، لم أتخيل أنك ستأتين في ذلك الوقت تحديداً.

- لماذا يا شامخ..؟
- لأني هجرت كل ملامح ذاكرتي التي تقودني إلى الأذى الروحي، كنت بحاجة إلى أن أكتب نصاً عن شيخ كبير ترفض كل الأوطان انتماءه، وكل الفصائل تنفي أي صلة قرابة به.

أجبت على الهاتف بقلق طفيف وكان صوتك مغموراً بالشجن..

لم أكن أتصور أن هذه المكالمة ستصنع وطناً بمولود الفرح الأول:

بعد ليال من صبر علمتني كيف أكره الحياة.

كان ردك حينها مملوءً بالخوف عندما همست لي: هل تنتظر أحداً..؟

لم أع حتى قبل فترة من الزمن كيف أن الله أنبت من جذع جوفك هذا السؤال لأقطف عنا / قيده وأنا أنطق بأوصافك..

دون أن أدرك أي جنون يمتلئ بي.

- كنت تصفني وكأنك تملك لي صوراً كثيرة:

"أنت صاحبة أحمر الشفاه المعتق برائحة الإدمان..؟

أنت وسيلة السحر المتراكمة في جسد رجل أقحم نفسه بمصيبة الانتظار؟

أنت العهد الذي قطعته على الأيام بأن لا تغرب فيها شمس إلا وأقيم النداء لتفاصيل وجهك كصلاتي.

أنت التي أجادت تعرية البوح في لساني حتى تساقطت من عجز الصمود.

أنت العين المخلوقة من صلب الحزن.

أنت الأنثى التي تجرأت على سرقة حدودي المحاطة بالخوف.

وأنا المحرم على نساء الأرض قبل أن تصنعي له عشاً أعلى شجرة الصدف كي يصعد إيه".

تذكر أنك لم تجبني عندما سألتك "وماذا سرقت منك"..؟ إلا بعد أن استوقفك الصمت طويلاً لتقول:

أنسيت ورقة روايتي المملوءة بالكلمات؟

وعقلي الذي كان جالساً على مقعد السيارة جانبك؟

لم يبق لي شيء من الاثنين..

بل حتى ما بقي لم يكن لي..

والله ما كانت لي ذاكرتي إلا أنها تسكن في جسدي وهي تلون وجهك كل يوم.

كنت تتحدث إلي بلغة غريبة؛ وكأنني لأول مرة أسمع رجلاً يتحدث على الأرض.

- ماذا تتوقعين من رجل رآك لمرة واحة؛ وانتظرك لأشهر..؟
- لكنك حدثتني أول مكالمة عن كل شيء، وكأنني اتصلت لأودعك وليس لأعرف عنك..!
- لا أملك في قلبي ميداناً مستديراً تتوسطه ساعة بعقاربها الثلاث لأتحكم به كيفما شئت.

يسكن قلبي كتاب مغلق لا غلاف له، وممتلئاً بالخيبات.

ممتلئاً بالأوراق المهترئة دون أن يجرؤ أحدهم على فتحها وقراءة الذي بها.

كنت أتساءل منذ مراهقي كيف سيأتي اليوم الذي أنظر فيه إلى نفسي وأنا أطبع عنواناً لذلك الكتاب.

لم أعلم عن شيء إلا أنني جاهلاً كل ما سيحدث، عدا أن العنوان مزيج من اسمها ورسمها.

- لو لم أقل لك أن والدتي تناديني؛ لما أغلقت السماعة ذلك اليوم.!
- ولو لم أخش أن تقوي هذا رجل مجنون لما أغلقتها أبداً.!
- ههه وهل تظن حقاً أنك لست مجنوناً.؟
- هل أفهم أن إجابة سؤالي الذي أرقني كل هذه الأشهر هي نعم.؟
- لم أقل ذلك لكني سألتك "هل تظن"؟

يا شامخ.. نحن في الحب نجهل أقدارنا ونعلم أن الزمن وحده هو من يخبرنا عنها..

فلم تصنع لها مدرسة سوى مضي الأيام ولم يخلق لها معلم سوى الصبر.

- لكني أقسم لك بمن خلق الصبر أني أحبك؛ وأنك حكاية يختبيئ خلفها شموخي يا سمو.
- وأنت تعلم أنني لم أقتف أثر السنين إلا لأنك تفاصيل الحياة بي..

حتى وإن كنت أخاف مما سيأتي.

- ما سيأتي؟ ماذا بقي يا سمو؟

تعلمين أن والدك لن يرضى بي.

- وأنت أيضاً تعلم أنني أنتمي إلى والد تزوج بامرأة قد اختارها من ذات السلالة؛ لقد أخبرتك قديماً بأنهم زرعوا فينا فكرة نسيان أي رجل لا ينتمي إليهم ولم

يولد منهم.. قيدوني منذ سنين وحرموا علي التفكير في أن أكون لأحد لا يحمل الاسم نفسه.

أنا لم أختر أن أكون في رحم أمي.

ولم أختر أن أنجب على سرير أبيض.

ولم أختر أن أتربع على عرش الدلال والثراء تمنيت لمرة واحدة أن أخرج من قصري دون أن أسمع وصية والدتي المعتادة.

"الأفواه من حولنا تحاول أن تتحدث عما لم يكن؛ كيف بشيء إذا صار وحدث..؟".

ألم تتذكر أنني قلتها لك ذات مرة..؟

- بلى؛ عندما كنت في المقهى ورأيتك تخرجين إلى سيارتك أول مرة.
- نعم يا شامخ.

أنا ممتلئة بالقهر؛ لا تظن أنني أحمل حرية الذهاب والعودة كيفما أشاء.

مباريات العتاب أخسرها دائماً..

ولا أستطيع أن أسدد كلمة واحدة للدفاع عن نفسي؛ فأكتفي بالصمت وأرحل دون أن أطالب بشيء لكن ذلك لا يعني أنني سأتخلى عنك.!

- وماذا ستفعلين طالما أنه لا شيء بيدك..؟ ما الذي تفكرين به يا سمو.؟
- هل تتذكر عندما قلت لي أنك تريد رؤيتي ولو لدقائق.؟

اتصلت علي وكانت الأرض لا تتسع لضيقي آنذاك.

كنت أشعر أن أبواب الفرح مؤصدة ولن تفتح أبداً إلا الباب الذي دخلت على حياتي منه.

أجبت على الهاتف وكان أول الحديث الباكي:

ألو.. سمو أنا أحتاجك؛ أريد رؤيتك حتى وإن كلفني الأمر كل شيء..

فأجبتك والعجز شهيقاً في رئتي:

"نحن لا نسكن باريس يا شامخ" إلى أن بكيت وأنا أقول: حتى في ضيقنا نتشابه.

- مضى على تلك المكالمة سنين، لكن ما الذي جعلك تفكرين فيها الآن..؟

الهرب إلى هناك.. الهرب عن كل الأشياء هنا، عن الخوف..

وعن الحصار..

عن الرضوخ لما يشتهونه على حساب ما لا نشتهيه..

- لكن كيف ستستطيعين العيش بلا وطن يا سمو..؟
- وطن..؟ الأوطان هي "ما نشعر به لا ما تحفظ لنا أماكن الميلاد".

منذ أن ولدت وفي كل عام يمضي من حياتي أقضي بضعة أشهر في هذا الوطن والبقية بعيداً عنه...

أجازة الصيف الطويلة في باريس

وأجازة عيد الفطر في لندن

وأجازة عيد الأضحى في جنيف

أضف إلى ذلك حفل ميلادي الذي أحتفل به في الخارج أيضاً والاحتفال برأس السنة الميلادية.. أنا لا أشعر بالانتماء إلا إليك؛ أنت وطني وأحتاجك أنت.

أنت من علمني لغة الحديث دون أن أتفوه بحرف.

وأنت من حلت جسدي لتضعه على ورقة من شجر ربيعي حتى عبرت أكثر من محيط....

أنت من أوصد الموت القادم في شرقية أنوثتي؛ بعد أن تساقط رجال الأرض واحداً تلو الآخر....

وأنت من أحرق جثمان الحزن ودس السم في أثر الألم حتى مات الجرح منكوباً؛

أنت من أشعل موقد الحياة في عيني بعيداً عن التكلف وببساطتك..

أنت من جعلتني أحمل توأم الفرح قبل أن تمس شيئاً من جسدي.. وأنت من علمني لغة الفرح والحياة لغة الحب ولغة العشق ولغة الصبر، وكذلك الجنون بكل تفاصيله.

- لا تدعي الحب يضع عقلك في بئر النسيان؛ تعرفين مكانة والدك ومنصبه يا سمو..

يستطيع أن يتسبب لك بشيء ما حتى وإن كنت بعيدة عن هذه الديار.!

- ما الذي يهم..؟ وبعد ماذا..؟

بعد أن أنجب منك طفلاً لن يستطيعوا أن ينزعوا منه هوية الانتماء إليك.؟

بعد أن أشعر به يركل بطني كحلم تكرر كثيراً وهو يكبر في كل لحظة يستدير بها؟

بعد أن يخرج ليبكي خوفاً من قسوة الحياة وهو يجهل أن الأمان رجل تعشقه أمه؟

بعد أن يتربى بين أحضاننا ونحن نعلمه كيف أن يصبح شجاعاً لا يخاف الضفاف؟

بعد أن يكبر وأنا أوصيه أن يكون شبيهاً بوالده في كل ما يفعل.؟

- وربما قبل ذلك بكثير يا سمو..!
- لن يحدث شيء..

نحن نشعر بالظمأ لأن ألسنتنا لم تنل نصيباً من الماء؛ وهناك لن نصرخ كثيراً لتجف ألسنتنا كما اشتكيت لي مما يحدث هنا..

اطلعت على لوائح الحق في اللجوء والمال الذي أملكه يكفي لأن نصنع ما شئنا.

لن نستقر في مكان واحد لمدة عام؛ بعدها سيفقدون الأمل في العثور علينا ونحن سنكون على قدرة بأن نستمر ونستقر هناك.

- تدركين أني أحبك كثيراً؛ لكنني أخاف عليك أكثر!
- وأنا أحبك أكثر من أي خوف أفكر به.
- أكثر حتى من الزمن الذي أسقط دمع عينيك في لقاء الخفاء..؟
- كثيرة هي لقاءات الخفاء؛ أيها تقصد..؟
- عندما التقينا في المقهى بين البرجين قبل العيد بعشرة أيام..

كانت شوارع الرياض ممتلئة بالعابرين؛ منهم من يبحث عن ثياب جديدة والبعض الآخر يبحثون عن فساتين تناسب مكانتهم ليتباهوا بها أمام بعضهم؛ إلا أنا.. كنت أرتدي ثوبي الأبيض دون أن أهتم بترتيبه.. لم أتجه إلى الحلاق كي أرتب ذقني حتى.

كنت أكره أن تنظري إلي وأنا في كامل أناقتي خوفاً من أن تحبي جسدي وأصبح رجلاً مكرراً أو روحاً استهلكت في قصص الحب.

كنت أخاف أن تغرمي بي من الخارج وتلتهي به عما بداخلي.

- والآن..؟ هل أيقنت أنني أحب روحك أكثر من أي شيء آخر.. أنا مجنونة بتفاصيلك وحكاياتك؛ بكل الأشياء التي تجيء بك إلي.

هل أيقنت أنني لم أسجل لي شهادة ميلاد في هذه الحياة إلا بعد أن انتميت إلى شرقيتك..؟

- أدركت ذلك منذ أن قلت لي: لا أريد أن أعود إلى المنزل دون أن أراك..

أسأل أي أحد ي ذلك الشارع المعتوه عن مكان المقهى.. فالجميع هناك يعرفونه جيداً.

كانت محفظتي فارغة من المال لا يسكنها سوى الفقر وبقايا ذكريات هالكة..

استوقفت سائق الأجرة فوجدته شيخاً قد أنهكه القدر حتى جف دمه..

منحته هاتفي المحمول وأنا أقول له قدني إلى ذلك المقهى ثم خذ هاتفي فأنا لا أملك مالاً كي أتصدق به عسى أن يدفع عني شر الحب.

سرت خلفه حتى قال هذا هو المقهى.

كنت لا أريد فرصة للفراغ خوفاً من أن يسكن بك سر آخر؛ ولا أريد أن أشعرك أنني متلهف جداً.

اتصلت عليك وقلت أنا أقف أمام الباب.. الشوارع مكتظة بالعابرين والجو يكسوه الجفاف.

لم يأخذ الأمر أكثر من دقيقة حتى خرجت وأنت تقولين: حتى في تناول القهوة انتشرت حمى العوائل!

شعرت أني وضعت آخر "طوبة" بمشروع اكتفائي من الحياة عندما أمسكت كفلك المخملي.

كأنهم دونوا اسمي في بطاقة ما وهم يقولون هذه السماء وطنك.

جلسنا ونحن نتحدث عن الحب والخوف والغيرة؛ وإعصار الكلام يأخذنا ويعيدنا إلى ذات الحديث.

- أنا موبوءة بك يا شامخ.
- يحدث أن أكون وباءً.. لأنني أعلم بعلاقتي الوطيدة بالتفشي..

كنت أكره أن أنظر إلى أحد غير كتبي.

الكتب وحدها لا تشعر، مع أنها تخلق مشاعر للموتى.

- وبماذا تشعر الآن..؟
- أريد أن يظل شعوري في قفص كعصفور.

لا أجنحة يطير بها إلا تلك التي يمين صدره وشماله؛ حرم من حق الطيران وحللت له حرية الرفرفة.

أنا لا أحب أن أطير مذ كنت طفلاً؛ فالرجل لا يشبه الأنثى في تفاصيله الصغيرة.

الرجل يخون لأنه وقف في سكة انتظار العاهرات طويلاً.. بينما الأنثى تخون لأنها لم تجد رجلاً.

عندما كنت طفلاً لم تمنحني الحياة سوى حقيقة التمني وحق الحلم؛ عدا ذلك كان كل شيء وهماً. بعد أن احتفلت بميلادي وأنا في السادسة عشر من عمري، قطعت كعكتي وهم يقولون يحق لك أن تطفو في قارب الأمنيات؛ عليك أن تقولها الآن.

لم يجتح ذاكرتي سوى أنني كنت بحاجة أمنية واحدة:

لو أنني استطعت أن أطبع صورة أمي على أضلع صدري المتقوسة وبذات الوقت تساءلت ماذا لو كانت أنثى غير أمي؟؟

ماذا لو كانت أنثى أخرى..؟

تشبه الأنثى التي تعرف إليها صديقي؛ كنت لا أعرف عن النساء إلا ما رأيت الجميع يقومون به؛ وكل ما كنت أعرفه هو أن للحب في وطني شوارع يصطاد بها ومجمعات تجارية ينال الأكثر وسامة بها فرصة الربح الأولى دون العودة والسؤال إن كان يخون أو يكذب.. فذلك لا يشكل فارقاً طالما أنه جاهزاً للتباهي به الأنثى أمام صديقاتها وهي تقول: هذا الرجل حبيبي؛ رغم أنها مؤمنة أنه لا زال يملك غيرها.. وأنه يكذب عليها.

أصابني اليأس بعد أن تذكرت بأن الكائن البشري لا يملك أضلعاً مستقيمة في صدره؛ وأنها لم تكن متقوسة إلا لأن الاستقامات عسيرة.. أيقنت حينها أن الصور لا تطبع إلا على التفاصيل المستقيمة؛ فكبرت وأنا أشعر بالحسرة على حلمي الموؤود.

كرهت أضلعي لأنها معوجة؛ ومضيت في سبيل لا تسكنه المنحنيات..

لم يكن ذلك ابتهالاً في المثالية بل من أجل ألا يقولوا يوماً ما أنني أشبه ميلان أضلعي؛ وأنني لم أكن يوماً رجلاً مستقيماً حتى صنع الواقع لي ذنباً من ذهب لا جحيم به ولا رائحة للنار لو ارتكبته..

لا يسكنني بعد أن أمضي العمر في دار العجزة أو المسنين؛ بل يتوجني وأنا أجلس متربعاً على عرش الحب.. ملكاً ومالكاً لأشيائها.

هذا ما حدث لي من قبل أن ألتقيك؛ وإلى أن التقيتك سمو.

- لكنك لا زلت تخاف..!
- ومم قد يخاف رجل مثلي..؟
- تخاف من البكاء أمامي؛

وتخاف من الغياب

وتخاف من مشد الشمس لحظة غروبها..

وتخاف من صمتي..!

- البكاء..؟ هذا المخلوق الذي يستعمرني دون أن يعلم عنه بشر في الأرض؟

قد أكون أحد أولئك الذين أقسموا له أن لا يتركوه أبداً حتى وإن كان صمتاً.

- ولماذا يا شامخ.؟
- لأنني رجل عربي.

لأنني أفتح تلفازي في كل يوم لأقرأ خبراً عاجلاً وأشاهد بعيني كيف تغتصب القدس؛ والعرب يخبئون رؤوسهم تحت أنقاض الخيبات دون أن يصرخوا ولو بصروت مبحوح.. لأنني رأيت أربعة جنود يهود يمسكون بعجوز واحدة؛ لا

يستطيعون حماية أنفسهم حتى من الخوف المصلوب على وجوههم ولا من صفعات يديها المقاومة.

لأنني تابعت طفلاً يتجه نحو مدرعة عسكرية وهو لا يملك في يديه سوى حجراً واحداً؛ لأنني في وطن أرقص فرحاً باليوم الوطني وعلاوة عام جديد معه زاد رصيد خيبات العروبة؛ لأنني..

- توقف؛ ما بك..؟

لو كنت أعلم أن سؤالي سيقذفك لهذا المنحنى لما تحدثت.!

- ههه حتى أنت مثلهم؛ تخافين الحديث..؟ أنا لم أصنع من مخيلتي قنبلة نووية.

أنا لم أخترع جهاز تجسس سياسي؛ ولم أؤيد محاولة اغتيال أو أصفق لها.

أنا أنقل لك ما يحدث في أرضي وكيف يولد رجال المال؛ بينما يموت هنالك رجال الشرف.

- هل هذا ما كان يخيفك..؟
- هذا البكاء؛ أما عن الغياب ومشهد غروب الشمس.. فالوجع المغروس بخاصرتي لن يتخلص منهما.
- أي وجع هذا..؟
- وجع التشرد؛ هل عرفت يوماً رجلاً مشرداً..؟

يشعر بالغربة في وطنه.!

يبكي دون أن يسقط دمعة.!

يبتسم ماشياً فوق جمر الزمن..!

- تقصد أن هذا الرجل هو شامخ.؟
- لن تجدي نفعاً إجابتي يا سمو.

الرجل العربي لا يعرف أن يغار على وطنه؛ كما يعرف أن يغار على أنثاه وكأننا اتخذنا الأوطان مبان دونوا عليها: للبيع أو للإيجار.

- والخوف من صمتي..؟
- صمتك حديث ساكن..

لا ينطق لكنه يكتب في عينيك؛ وأخاف أن أقرأ شيئاً لم تخبريني عنه ذات يوم؛ فأسبق الحلقة الأخيرة من مسلسل الصدق بيننا ويموت بها البطل.

- لكنك تعلم أنني قد أجرحك نتيجة صدقي فضلاً على أن أجاملك أو أكذب عليك.
- هذا ما كتبنا – أسماء الحب – أسفله ونحن نوقع على الميثاق بأن لا محطة وقوف قبله إلا الموت.
- لا تتحدث عن الموت أرجوك، أنت تعلم أنني لا أطيق أن أسمع عنه شيئاً.
- لأنك هاربة عن نفسك يا سمو لأنك شرقية.. لأنك تكتبين عن الحب وتخافين تفاصيله..

ولأنك أنثى تكسوه عباءة الشرف فتقتل نفسها عطشاً؛ خوفاً من أن يقال: وقفت أمام رجل يسقيها الماء.

- ماذا تريد من أنثى كهذه..؟
- لا أريد شيئاً.. أريدك أن تعلمي بأن الوجوه العابرة في الحياة ليست إلا رؤوساً مستديرة تزاحم السنين دون أن تنظر إلى أقدامها..

نحن العرب لا نفقه كيف كبرنا؛ لكننا لا ننسى أننا كبار.

- شامخ؛ ألم تمل الحديث عن العرب؟ ماذا تريد من هذا الحديث بأكمله..؟ ما الذي تريد أن تصل إليه قل لي..؟

- ههه صدقيني لا شيء يستحق الذكر سوى أنني أريد خلع نبتة الضعف في رأسك من جذورها..

أريدك أن تكوني أنثى قادرة على عبور الطرقات بلا خوف..

بلا رعب..

بلا عجز..

بلا حديث عن ملكك وأنك حاصلة عليه فقط كي لا تكوني أنثى عارية الاحتياج بألسنتهم.

جربي أن تتسلق عتبة المقهى الأصعب، المقهى الذي لا يستطيع احتساء فنجان القهوة فيه إلا المجانين.

- لكن أنت من جعلني أكره المقاهي خوفاً من سكرة الغياب.. وأنت من أوقفني على أبوابها حباً.!

- وأنت من تحبين الهروب منها.

- أهرب لأنني لا أستطيع الوصول إلى إجابة معك إلا وكانت أصعب من السؤال نفسه؛ هل تتذكر كم مرة سألتك دون أن تجيب على أسئلتي..؟

كم مرة سألتك:

لماذا بعد أن خرجنا من المقهى لم تمسك يدي..؟

- لأنني لن أتركها أبداً..

- أخاف عليك من أن يسبق الزمن خطاك وأنت مشلولة بين ذراعي؛ هذا ما جعلني أنتظرك حتى نزلت من السلالم وتبعتك من شارع إلى شارع كالمجنون دون أن تشعري بي.

كنت بحاجة أن أعرف أين تسكنين؛ وخشيت إذا عرفت ذلك أن تظني بأنني قد فعلتها ابتغاءً فكرة سيئة..

لكن شيئاً ما كان يقول لي لا تستمر وعد من حيث أتيت؛ فلم أستطع إكمال السير.

اتخذت أول جهة للعودة ثم اتصلت بك لأسمعك تقولين: لم أعتقد أنك قد تكون رجلاً مجنوناً إلا بعد هذا المساء.

لم أفهم حتى الآن أي روح كانت جالسة أمامي، وأي رجل كان يحيك السحر بمغزل سنيني دون أن أفقه شيئاً إلا أنني أتساقط على أرضه مطراً وأنا أقول:

اللهم اجعلني صيباً نافعاً..

اللهم اجعلني سقيا خير وبركة ولا تجعلني سقيا عذاب، بينما كانت كلماتك تتتالى:

وماذا أفعل يا الله بمطر أغرقني ودمر مدني..؟ وأنا أشاهد ذلك؛ راض بكل ما يحدث من فيضانات ودمار..؟!

- أنت من دمرني يا شامخ فوالله ما كنت أظن أني قد أدون تحت هويتي "مستعمرة"..!

أنت من علمني كيف أسقي جذور الحب بالحياة كل يوم حتى صنعتك حياة لي.

- لكنك جريئة جداً في ضفاف الحب.!
- بل أنا خجولة جداً؛ لكن شيئاً ما يدفعني إلى الجنون عندما أراك.

لا أعرف كيف أصف ذلك؛ هما معاً: جنون وخجل يجعلان مصيري مقيداً بجرائم العاطفة.

- لن أنسى كيف تجرأت أمام أولئك الرجال الملتحين في المركز وهم يمضون مع رجل الأمن.
- هههه ماذا فعلت؛ لم أفعل شيئاً..

كل ما قمت به هو أنني أخبرتهم عن وجود ثلاث فتيات في الطابق العلوي يطاردن الرجال؛ خشيت عليك عندما كنت أشير بسباتي تجاهك وأنا أقول:

هذا زوجي؛ وبينما ننوي النزول إلى هنا حاولن رشقه بكلمات الغزل.

- هذا ما يثير جنوني..كيف تتجرأين وتفعلين ذلك..؟!
- لو لم أفعل ذلك لكنت ضحية تحملها مركبتهم وأنت لم ترتكب جريمة تسكنك ويلاً أبدياً.. هم يظنون أن الدين ترهيب ونسوا الترغيب يا شامخ، هذا أحد الأشياء التي جعلتني أرتوي من فكرة العيش هنا..

كأنهم استطاعوا تكبيل يدي بأغلال غيابك وأبعدوك عني، نحن لم نزن...

ولم نرقص آخر المساء في حفل مجون داخل قصر مختبئ في وسط المدينة كما فعل الآخرون.

نحن لا نصنع بيوتاً لنا إلا لنشعر بالانتماء لها.

نحن لم نسرق ولم نخن.

نحن لم نقسم كذباً.

نحن لم نرتد ما يظهرنا بمظهر أنيق وفي جوفنا ألف قناع قذر نحن لم نغتصب الحب في أرض مولدنا؛ نحن لم نتجرد من الحياة لنتقو بما نملك على ضعيف أو مظلوم...

نحن لم نصمت على الحرام في جهة ونتحدث عنه في أخرى؛ نحن لا نريد أن نموت في أوطاننا إلا بعد أن نتعلم من الحياة شيئاً عنها.

- هل تصدقينني إن قلت أنك ماهرة في الحديث عن الوطن..؟
- ربما لأنني أفتقده كثيراً.
- وربما لأنك قادرة على منح الكثير لكنك تغمضين عينيك من أجل ألا ترين.
- يا شامخ افهمني..

أنا أنثى في مجتمع يحرم عليها ما يشاء ويبيح لها ما يشاء....

العادات أصبحت دستوراً وكأنها مرجعاً شرعياً عندما يصب الأمر في صالحهم.

الحرمان هي وسيلتهم للعقاب على ذنب أقل منه وربما لم يكن ذنباً حتى.

الحب: زوروا هويته بعد أن ألبسوه تهمة العهر.

الشرف: عرضوه في احتفالية صاخبة كأنه لعبة رخيصة يركلها أصغر أطفالهم.

العار: فتاة لا قبيلة لها.....

كل شيء أصبح كما يبتغون وهم يكممون أفواهنا.

- هل نسيت مقولتك لي..؟ بأننا لا نسكن في باريس.؟
- لا.. لكن لم أنس أيضاً أنني وقبل أن أعرفك أخبرتهم عن حجابي.

كانوا في مجلس القصر يتحدثون مع بعضهم وأنا في الأعلى أجفف شعري؛ بعد أن انتهيت منه قررت النزول والجلوس معهم لدقائق..

فتحت باب المصعد وسمعت صوت ضحكاتهم..

بعد أن اتجهت إليهم جلست جانب والدتي؛ كان أكبر إخوتي جالساً وبين يديه فنجان تفوح منه أبخرة الخوف..

تحدثنا قليلاً عن يومنا حتى أخبرتهم أني سأخرج دون أن أغطي وجهي.

صراخ أبي غضباً؛ وما فعلته أمي ليس بأقل شأناً منه، كانت نظراتهم موشومة بالغضب كأنني قمت بفعل ينقص شرفي..

مع أن قراري كان معتمداً قبل أن أتحدث إليهم، فأنا عنيدة عندما أضع لي هدفاً لا أتنازل عنه حتى لو كلفني الكثير، إلا في حالة واحدة وهي إن واجهني أحدهم بحجة تجعل من هدفي نقصاً في حقي.

أخذوا قرابة أشهر بين التهديد والوعيد؛ لكن الحكاية لم تكمل نصف العام حتى اقتنعوا بها بعد أن أصبح الأمر كعقد أضعه على صدري.

لم يحرصوا عليه لأنه سيزيدني شرفاً، ولم يكن ذلك خوفاً من الله...

بل لأنهم يختبئون خلف تناقضات تثير الغضب، خلف جهات تجهل الفائز بها.

إما جهة تنظر للأنثى التي لا تضع على وجهها غطاءً بأنها عاهرة؛ وإما جهة أخرى تنظر للأنثى التي لا تكشف عن وجهها بأنها متخلفة.

نحن أضعنا سبل الصواب يا شامخ وكأننا فقدنا أبصارنا التي نرى بها..

- لكنك تعلمين أن ذلك شيء وما نحن عليه شيء آخر، تع لمين أن الحب في دستورهم جريمة حدها الموت..!
- وأنا أحبك حتى الموت.
- ههه أنت عنيدة جداً. عنيدة للحد الذي جعلك تصنعين بداخلك أنثى تفكر بالهجرة هرباً..؟
- صدقني سأفعلها؛ فقط أنتظر الفرصة المناسبة.
- هل جننت يا سمو؟ نحن نصنع موتنا بأيدينا.
- أفضل من أن يصنعوه هم بأحكام لا مرسى لها ولم يستطيعوا أن ينزلوها على شاطئ الإقناع؛ تشبه تلك الحلقات الحديدة التي امتلأت بها حدود أراضيهم دون وجه حق إلا من أجل الرغبات.

ألم أقل لك أننا في قاع يبيح ما تشاء، وكذلك يحرم ما تشاء..؟

- المسألة ليست بهذه البساطة.. ألم تفكري بأوطاننا؟

ماذا سنفعل بهوياتنا.؟ بهذه الأسماء التي رافقتنا طويلاً منذ مجيئنا إلى الأرض وحتى آخر العمر.؟

- اجتاحتني فكرة....

ما رأيك أن نتصل بأكثر من قناة إعلامية وندعو مجموعة من الصحف المختلفة، نخبرهم أننا أولى عطاء..

سأخبرهم بأنني أنثى فاعلة للخير، وأنت رجل أمضى حياته بالتبرعات حتى قرر الآن أن يتبرع بهويته لمن يحتاج إلى ذلك..

ثم إن الأمر لا يقتصر على ذلك فقط، بل الهوية والاسم أيضاً..

وأن ذلك ليس إلا من أجل أن نكمل مسيرة العطاء في تاريخنا الممتلئ بالخيرات والحب لهذه البلاد.

- هل تصدقين..؟ أشعر أنني اقتربت من مرحلة أجهل مصيرها، لا أنتظر منها شيئاً سواك ولن أندم على شيء غيرك.
- إذاً ستنتظرني؛ لكنك لن تندم أبداً لأنني أخبرتك قبل عام وصنف: أني محرمة على جميع رجال الأرض إن لم أكن لك!
- حتى وإن صنف طلبي هذا في قائمة الرغبات الأنانية، لا يهم.. المهم أن تقسمي لي على حرمتك إلا لي.
- لقد أقسمت على نفسي كثيراً، وأقسم لك بالذي خلقني وجعلني قادرة على التبرع بهويتي وشراء قلبك حتى وإن كان بملايين الأرض والسماء.
- إياك أن تفكري بالحديث معي عن المال؛ أكرهه.. لقد أخبرت كثيراً أنني أكرهه.
- لن أسألك عن السبب فإجابتك ستكون كما عهدتك "أنت لم تدعي في قلبي متسعاً لحب الأشياء سواك".
- وربما لأنني أفضل أن أفترش قطعة حصير على أن أسترخي فوق أريكة إيطالية.
- شامخ.!
- ماذا؟
- أخبرني عن أكثر موقف أثار فضولك لأن تعرف عنه شيئاً منذ التقيتك وحتى الآن.!

- ماذا تريدين من رجل بسيط؟

رجل يسابق الأيام قبل أن تكثر في وجهه التجاعيد ويملأه الشحوب.؟!

رجل يعصر الفوح المتبقي في علبة الأيام.

يكره كل الحكايات البسيط ويسكن أبجديات لم تقرأ بعد.. يختبئ عن الحب به؛ يكتب عن ألوان طفولته المجردة من الفرح ويلونها بقلم رصاص..

يحب جارته العجوز ويحاول الاختفاء في فراشه عن أعينهم حتى لا يوقظوه قبل صلاة العصر لأنه ضرب طفل صاحب الدكان.

يبكي لأنهم اتجهوا إلى محطة في المدينة دون أن يأخذونه معهم ويضحك لأنه أبكاهم حسرة عليه!

ماذا تريدين من رجل تربص الحزن في طريقه حتى أصبح لا يرى الوجوه من حوله.؟

ماذا تريدين من رجل أجهضه البكاء وهو لا زال يحمل جنين الصبر والدمع دون أن يتذمر.؟

- لست طماعة فأنا لا أريد الكثير..

أحتاج لشيء واحد "أعطني إياه وخذ البقية لك" فأنا لا أريد سواه...

- ما هو.؟

- أنت..!

- لن يسمع لشفتي من بعدك حديث عن الحب؛ ولن أتقوس على خصر أثى غيرك.

لن أرفع بكفي جديلة غير تلك الشقراء التي ترتطم بصحراء وجنتيك مخبئة خلفها عينيك ومرساي لن يجلس في حضني من بعدك ملاكاً.

ولن أسأل الدفء إلا عن تلك التي كتبت لي أنني ساكن في كل الأماكن.

وأنني راحل إلى كل المراحل.

وأنني عابر لكل تلك المعابر.

لن أقسم كما فعلت، لكنني سأتمنى الموت هبة من الله عندما أفكر أن أكون لغيرك فأنا رجل لا يباح من بعدك أبداً إلا لقبره ولا أستطيع أن أغفر له أن أراه مع أنثى غيرك.

أقرأت رواية الحب في عيني يا سمو.؟

- كان لها حرف هادئ جداً، لا أستطيع أن أنال الارتواء منه.
- هذه الرفرفة التي قصدتها بأجنحتي تلك.

تنصتين.. إذاً أنت تملكين الأجنحة، لكنك لا ترتوين لأنك لا تطيرين وتكتفين بالرفرفة.

- علمت أن ذلك سيحدث لذلك أخبرتني عنه من قبل، أليس كذلك.؟
- سأجيبك إن حصلت على إجابة سؤالي الذي طرحته عليك كثيراً:
- أي سؤال؟
- هل أنا مجنون حقاً.؟
- لكنني لم أجبك.
- وأنا لم أجبك أيضاً.
- أحتاج أن أسمع إجابتك لأنني أريد أن أحسم أمراً.

- بماذا تفكرين.؟

- بك.!

- إذاً من أشركت معي..؟

- لا شيء سوى أنني أحتاج أن أعرف سرك العميق..

سرك الذي أرهق حدودي، لا أعرف كيف يحدث لي كل هذا معك!

أنا المسجونة المقيدة.

وأنا القاضي الحاكمة.

وأنت المتهم المذنب البريء.

لا أريد أن أنتهي منك ولا أستطيع الابتداء بك؛

أخاف عليك، ولك، ومنك.

أخاف عليك من جفاف يقتل ظمأ الحب إن شرع الغياب أبوابه.

وأخاف لك لأن الحب لم يترك بك مساحة إلا وغشاها، حتى إنك لم تعد تميز بين الخوف والاحتياج....

وأخاف منك إن أنهيت هذه المكالمة بغياب مفاجئ، حينها ستنزع روحي عن جسدي.

- أنت من يصنع لي من ضوء الشمس خلايا أم لا تبور.. ما بك الآن أصبحت تهلكينها واحدة واحدة.؟!

- لأنني أريد أن أرحل الآن قبل غد.

- لينم الرحيل يا سمو.

انتظري قليلاً.. سيكون كل شيء أفضل مما كان عليه سابقاً؛ ستنتهي ملامح الأرق بنا وتمحى آثار الانتظار الملوث بالجفاء.

مللت أذى الغياب، وارتويت من لعبة الاختباء بين المقاهي والمطاعم كأنني لص يبحث في وجوه العابرين عن ملجأ يؤويه؛ مللت قيوداً تقتل كل أحلامي المعتقة بالحياة؛ مللت التناقضات المريبة في كل شيء بأعينهم..

أحتاج أن أبتعد عن هنا لأتطهر من قذارة الشكوك والأوهام.

- أي شكوك يا سمو.؟
- أنت لا تعلم عنها يا شامخ وأنا لا أريد أن أحملك تفاهة أحاديثهم.

هذه الأحداث اعتدت عليها وهي ليست الأولى.. فقبل أن أعرفك وذلك يحدث معي.. قد حدثت قبل أسبوع من الآن؛ حتى أنني اعتدت على المشهد والحديث....

تدخل علي أمي بغضب طائش لأنني أتحدث مع إحدى صديقاتي..

ثم تفتش هاتفي دون أن تنطق بحرف إلا صرخات باهتة، تبحث ولا تجد شيئاً فتعيد الاتصال بآخر رقم دون أن تجد جواباً إلا صوت صديقتي.

- الرجل والأنثى يخلقان في روح واحدة حين يلتقيان، أنت تتحدثين وكأنك تروين قصة لي لكنها باختلاف لون واحد:

هو أنني والصمت محاربان، كل منا يحمل سلاحاً وقنابل يدوية وأهلي هم الخصم.. يريدون أن ينصتوا لحديث ولو بكلمات بسيطة عن ما يسكن جوفي، والكاتب وحده لا يسأل عما في داخله..

فهو يفضل أن يصدر في حقه حكماً بالسجن مئة عام على أن يعرف ما في داخله؛ يحمل سراً في ذاكرته – لم يكن للحرية ولا شعاراً للسلام – هو سر يكافح من أجل أن لا يعرفه أحد..

- وما سرك..؟
- عيناك يا سمو.

ما كنت أظن أن ذلك سيحدث لي يوماً من الأيام، لم أسابق الحياة وأنا حافي القدمين من أجل أنثى إلا أنت.. لم أترك خلفي كل ما أملك:

وطني

وجسدي

أرضي

وسنيني إلا بعد أن أشعلت ثورة الغرق بك.

ما عدت أعلم شيئاً عن ما أنا فاعل إلا أن ارتطام شهب الحب ونيازك الجنون باتت تقتل الهدوء في أرضي.

- خبئني فيك عني؛ فأنت لي ملاذ وأنا هاربة مني إليك.
- احتضنتك كطفلة لم تبلغ العاشرة بعد؛ وعانقتك كشيخ أنتظر أخاه ستين عاماً بعد الفراق؛ أخفيت دمعي قبل أن يبلل رأسك كرجل أمضى حياته في البادية: يرحل في الصباح مسابقاً للزمن خوفاً من أن يصل ليجد الماء قد جف..

حملتك على صدري كوالد أهداه الله روحك بعد سنين عقم بائسة.

- أنت كل الملاجئ.. ولكن ماذا عن والدي يا شامخ.!
- ماذا عنه.؟

- أنت لا تعرفه جيداً؛ هو متسلط وعنيد أكثر مما تتصور..

أخشى أن يجتاح قلبه الحقد فلا يبعد عن ذاكرته سبل الانقام منك.

- وأنت.؟

ألا تخافين على نفسك يا سمو؟

نحن مرتبطان بذات المصير؛ وأنا أخبرتك إن كنت تشعرين بأن خطوة سنقوم بها تصنع لك ولو قطرة من الندم أفضل الانسحاب عن تنفيذها الآن.

- لا أعلم يا شامخ.. تفكري معلق بأشياء كثيرة وغير مرتبة.
- ما الذي جعلك تطوفين حانات القلق بعد أن صنعت لك منزلاً من الهرب؟
- أنا لم أصنعه بل الزمن هو الذي جردني من لون الرضى ليجعلني أغفو وأستيقظ على كنف الخوف.
- لكنك معي يا سمو.!
- هل رأيت كيف أصبحنا الآن..؟

تارة أقوم بإقناعك وتارة أخرى أنت من يحاول إقناعي.

- أنا لا أحاول إرضاء غروري ولا أطلب شيئاً،

تعلمين بأنني رضيت بك دون أن أعرف عنك شيئاً ودون أن أسألك عن أي رجل آخر..

- دعنا من هذا الحديث الآن فأنا متوترة قبل أن نتحدث فيه.
- متوترة..؟ما بك أخبريني.. كنت أشعر أن هنالك أمراً لا أعرفه.
- لا شيء يستحق الذكر؛ فقط صديقتي "وئام".
- ونحن لا ننته من هذه الصديقة حتى الآن؟ وبعد كل هذه السنين.؟

- هل تصدق أنها على علاقة بشاب عربي التقته في محل للأزياء قبل أيام.!
- لكنها متزوجة.!
- هذا ما جعلني أصاب بالذعر؛ أن زوجها علق على جدار منزلها كل الأمنيات، في كل مساء يحقق لها واحدة.
- ولماذا تفعل ذلك إذاً.؟
- بعد أن واجهتها بسهام الأسئلة قالت:

أعلم أن زوجي وأعلم أنه يحبني لكنني لا أشعر تجاهه بأي مشاعر.

لا أشعر إلا أنه كائن يركع أمامي من أجل شهوته.

في أوقات رغبته تولد به أحاسيس اللجوء إلي؛

وفي بقية الأوقات يتخذ الرحيل مخرجاً له بحجة العمل والأصدقاء..

- لا يجب أن تستمر فيما تفعله يا سمو.
- تحدثت معها وغضبت عليها كثيراً؛ كانت تسخر من كل كلمة أقولها لها بإجابة عقيمة؛ حتى أنها أشعرتني بحماقتي وأن ألحق لها فيما تقوم به.!
- ماذا؟ هل تمنحينها العذر فيما تفعل؟
- لم أقل ذلك؛ لكنها تتحدث عن أشياء لا أستطيع وصفها لك..

هي تتحدث عن عمها الذي زوجها برجل قريب لم تكن تريده ولا تستطيع أن تصرخ بأعلى صوتها؛ كان لها حق الرفض والقبول لكنها لم تنل منه شيئاً..

هي لا تطالب بالكثير حتى بعد أن ارتبطت به؛ تسأل فقط عن إ حساس يسكن جوفها؛ لا تريد أكواب شمع مضيئة ولا تريد عشاءً في مطعم فاخر ولا تريد عقد ماس يبهر النساء ولا تريد تذكرة سفر لدولة أوروبية..

كل ما تريده "إحساساً".. إحساساً لا أكثر.

- إذاً كيف تقول لك أنه يحبها.؟
- هو يحبها كجسد؛ لا يحبها كروح.

نحن النساء لا نشعر بنفس شعوركم دائماً؛ لا نبكي على ما يبكيكم دائماً.

لا نشكو.

لا نتكلم ولا نتذمر كما تظنون؛

لكننا نفعل ذلك أحياناً وفي حالة واحدة فقط..

إذا ضاقت بنا السبل وأوصدت الأبواب في وجوهنا.

إن كان هنالك سر عميق في جوف إحدانا: نحتاج لرجل أكثر عمقاً من أجل الوصول إليه.

- لكن ذلك بأكمله لا يشفع لها ما تقوم به؛ وأريدك أن تقطعي كل حبال الوصل بينك وبينها.!
- هل جننت.؟ أنا ووئام ولدنا في نفس الأسبوع وفي نفس المكان؛ لم نهجر بعضنا مذ خلقنا.
- أنا لن أعيد كلامي يا سمو؛ اقطعي كل حبال الوصل دون أن تستمري في الجدال.!
- أنت من كان يقول لي لا تهربي عن المشكلات؛ بل واجهيها حتى تصلين إلى حل يعالجها.

هي تتأثر كثيراً لو وجدت أحداً يستطيع الحديث ليقنعها؛ سأتصل بأختها الصغرى فهي تحبها كثيراً وستنصت إليها أنا متأكدة.

يا شامخ.. لا تحل الأمور بهذه الطريقة؛ ماذا لو كانت في موقفها أنثى على علاقة بك؛ هل سترفع عينيك عنها لتقول:

لا شأن لي بها..؟

- بل سأمزق جسدها قطعة قطعة.!
- ههه هنا أنت بنضجك وفكرك المتحرر.. يا مثقف؛ يا عاقل..!

أين حديثك عن سبل العلاج للأمراض المتأصلة فكرياً..؟

أين حديثك عن الحب والعار والفرق بينهما؟

أين معادلات التجاهل التي كنت تأمر بها لآفة التطرفات الدينية؟

لا شيء يستحق الاستغراب؛ ربما نسيت أنك رجل شرقي: الغضب الطائش يسري في دمك حتى يفقدك بصيرتك.....

نسيت أنك قد أخبرتني أن الرجل الشرقي يعيش بغضبه لا بقلبه.

ونسيت أنك قد أخبرتني أن الرجل الشرقي يباح له ما حرم على من حوله.

كنت أظن أنك ستقول لي "أنا كاتب أجيد وسيلة الإقناع؛ دعيني أتحدث معها ربما أنجح في ذلك".

- لكنني لن أدنس صوتي أو سمعي بأنثى كهذه.
- ما الذي جرى يا شامخ.؟ أنسيت الجملة التي علقتها طويلاً كعنوان لك في بريدك:

"كلما كانت خيانة الأنثى عظيمة؛ كان الوجع الذي يسكنها أعظم".

- لا ترغميني على فعل شيء لا أريده يا سمو.

- لن أجبرك؛ لكن تذكر أنك قد تنقذها من ضياع حتمي؛ قد تخرجها من صومعة القذارة التي دنست قدميها فيها.

- أنا لا أملك سارة أقذفها في جوف البحر يا سمو لأخرج منه ذنوبها.
- كما تشاء؛ لكن تذكر دائماً أنها لا تملك رجلاً تتكئ عليه في هذه الحياة ليصنع لها درب الحق؛ من تظن سيرشدها؟

اجتازت المرحلة الثانوية مع فتيات طائشات؛ لكل واحدة منهن سائق خاص؛ أقرب صديقاتها "سهى" كانت تملك ثلاث هواتف.. لا أحد من أهلها يعلم بذلك؛ تخلق ألف عذر في قائمة العودة إلى البيت؛ هي لم تتجه إلى الجامعة كما أخبرتهم ولم تتأخر في الطريق لأنها قامت بإيصال صديقتها إلى منزلها.. لم يكن معدلها الجامعي في المستوى الأول "٤.٥" كما أخبرتهم ولم تكن متعبة بعد وقوع المشكلة..

- أي مشكلة؟
- مشكلتها التي كانت سبباً لكل ضياعها الآن..

كانت تريد الخروج من الجامعة ولم تخبرن عن السبب؛ قالت ساعديني فقط...

ظننت أنها محرجة من أمر ما فاتصلت بسائق خاص ليقلها.. لم أتصور أنها ترسم لها مساراً آخر.

بعد أن خرجت من الجامعة اتجهت إلى أحد المراكز التسويقية ووقفت أمام بوابته الرئيسية لدقائق ثم توقف جانب سيارتها شاباً عشرينياً لتنزل وتمسك يده متجهين إلى مدخل المركز.

كانت قد اتخذت كل سبل الحرص لأنها لا تريد أن تظهر أمام صديقها العشريني أنها فتاة متخلفة..

اختارت المكان الأبعد عن منزلها لأنها لن تغطي وجهها في رفقته بل ستكتفي بالحجاب مع إظهار خصلة من خصله الغجرية.

بعد أن أمنت على نفسها وضعت نقابها وحقيبة جلد حمراء على كتفها النحيل.. وفي طريقهما للدخول كان أحد حراس الأمن خارجاً لانتهاء عمله؛ وبعد أن سقطت عيناها عليه ورأته أمام وجهها لم تستطع الصمود.. صرخت بعد أن أيقنت بأنه عرفها جيداً واجتمع بعض أصدقائه على صوتها لكنها سرعان ما استدارت لتتجه إلى سيارة صديقها وهي تتوسله أن يسرع ليرحلوا عن المكان.

- لكن حارس الأمن ابن جارهم؛ وأخوه يفكر في التقدم لخطبتها.
- أكملي.. ماذا حدث؟
- كانت تبكي دون أن تستطيع التفكير في شيء بين اجتياح الخوف وصفعة الصدمة كانت عيناها ترتعشان رعباً من مصيرها؛ لا يسكن ذاكرتها سوى ملامح وجهه في زيه الأمني وهو واقف أمام المركز لتحملها إلى ملامح وجهه وهو واقف أمام الباب مع أخيه.. كان أخوه مغرماً بها حد الجنون؛

عشقها قبل أن يرى خصلة واحدة من رأسها؛ لكن حديث والدته العجوز جعل الاحتلال يستوطن قلبه..

أصبح يقف طويلاً أمام منزلهم حتى تخرج إلى الجامعة؛ ولأنها فترة الصباح وبسيارتها السوداء..

كان زجاجها مظللاً بعازل رؤية.. وما إن يتحرك السائق حتى ترفع الغطاء عن وجهها لتقرأ بينما هو وأخوه على تأهب تام لمتابعتها.. يسيران خلفها حتى يقفا أمام الجامعة ثم تترجل سافرة دون أن تعلم عنهما شيئاً..

بعد أن رآها أخوه في المركز اتجه إلى المنزل مسرعاً وأخبره عن الذي حدث؛ كان يثق بأخيه كثيراً فقرر أن يتراجع عن قراره ويتركها في طرقها بعيداً عن كل الارتباطات؛ مضت أيام ثم سقط مغشياً عليه ولم يفق من غيبوبته إلا بعد شهر ونصف بسبب ارتفاع ضغط الدم..

أكمل بضعة أيام في وضع طبيعي ثم ساءت حالته كثيراً حتى توفي؛ كان أخوه الأصغر يعلم بكل ما حدث..

أصيب بنوبة غضب لم تجعله يتمالك أعصابه حتى وقف في أحد الصباحات أمامها وراح يشتمها ويخبرها أن ما حدث لأخيه كان بسببها؛ لم تكمل طريقها إلى الجامعة فعادت إلى باب منزلها وهي تخبر والدتها أنها تشعر بألم يمنعها من الذهاب...

أصبحت بين تفكير وتأنيب؛ بين حسرة ووجع؛ بين ألم وخوف.. وأكثر ما يشغل بالها أن أحداً من أهلها كان سيعلم عن مصيبتها؛ لكن المصيبة الأعظم هي التي وقعت بعد أن كان والدها عائداً إلى المنزل فاستوقفه السائق

ليخبره أن ابن جارهم قد تعرض لابنته وصرخ عليها؛ لم يستطع الصعود ليسألها عن شيء فاتجه إلى باب الجار ليطرقه لكل قوته حتى خرج الابن الغاضب ليتلقى صفعة قهر من الرجل الذي طالما اعتبره والداً له.. لم يتفوه بحرف سوى أنه نظر إلى عيني والدها ثم اكتفى بجملة عقيمة قالها:

"لن أنتظر الاحترام من أب لم يعلم ابنته الشرف؛ ابنته التي تعلمت كيف تسير في طرق الساقطات" بكى والدها بعد أن مضى إلى منزله؛ دخله متجهاً إلى حجرتها.. فتح الباب ليجدها تضحك ممسكة هاتفها؛ وقف ينظر إليها صامتاً حتى انهال عليها ضرباً تعالت منه رائحة الخيبة والانكسار.

أصبح المكان ممتلئاً بألوان الانهزام والبكاء.. لا شيء يكفي خيبة رجل أمضى حياته من أجل ابنته ولا شيء يصف ابنة لم تتعلم إلا أن تفسد فخر أبيها..

تركته يصرخ غضباً بعد أن ضربها بسياط من الهر حتى انتهى وغادر، وبعد أن مضت على ذلك ثلاثة أيام اتجهت إلى حجرته.. دخلت إلى هناك وهي تقول: لم أقل لك يكفي ولم أتوسلك أن تتوقف عن ضربي، لكن أتيت لأخبرك أنك أنت من جعلني أفعل ذلك.. تظن أن الحب مالاً وتظن أن الحياة والأمان مالاً؛ تظن أن الأبناء مالاً وتظن أن المال يصنع لنا المعجزات..!

أنا لا أحتاج المال.. أحتاجك أنت؛ أحتاج صدرك لأبكي عليه وأنا أقول لك أحبك..

أين أنت..؟ متى آخر مرة جلست فيها معي لتسألني عما أحتاجه؟

متى آخر مرة قبلت جبيني وأنت تضمني إليك؟

تركتني أصارع الحياة لأرى ماذا يفعل آباء صديقاتي وجئت إلي بمالك فقط..!

هل تعرف معنى أن تكون أباً.؟ لا يعني ذلك المال؛ ليس المال أبداً..

غادرت أمامه والدمع عاصفة جاءت بها فصول الحسرة..

مضت الأيام ثم زوجها بأول رجل تقدم إليها دون أن يعود إلى موافقتها؛ وها هي باقية معه لأنها تخشى أن يقال عنها مطلقة؛ هي تخونه الآن لأن والدها قد خان الحق الذي كتبته لها الحياة..

- ما كنت أظن أنها تخفي كل هذا الألم في روحها؛ كنت أسمعها تضحك كثيراً عندما تزورك.
- الأنثى تضحك كثيراً لأنها تحاول قتل جنود الشفقة في وجوه الآخرين؛ ليس لأنها سعيدة حقاً إن كنت ستساعدها فتذكر أن الله لا ينسى لك ذلك.
- أنا أكره أن أرفض لك طلباً لكنني قد عبرت وحل الخوف ولا أريد أن تطبع قدماي به..

حتى مراهقتي لم تكن شبيهة بهم يا سمو؛ لماذا لم تفكري بي؟

لماذا لم يسكن في ذاكرتك أنني رجل قد يشبه زوجها الذي لا يحمل عقداً..

الذي تضاجعه لأنها فقط تخشى أن يقال عنها مطلقة..؟

لماذا لم تخافي على أعيننا من بكاء قد يفقدها البصر..؟

لماذا لم تظني بي سوء؟

لماذا لم تقولي أنها قد تغويني وتسلب أشيائي بعد أن كانت ملكاً لك وحدك؟

- لأنه لا أحد يرغم على الطهر والعفاف.. كل روح تفعل ذلك برغبتها وهذا ما يجعل بيني وبين التيارات الدينية صدامات....

أنني أقول لهم في كرة نلتقي بها "الشرف لا يكمن في ارتداء عباءة والعهر لا يتمثل في قيادة سيارة"..

نحن نملك أجسادنا؛ وعقولنا لم ترحل في سلة الجنون بعد.!

- تبحثين عن عقل في الحب؟

أين عقولنا ونحن نتضجر من واقعنا التعيس بعد أن صنع لنا كل هذا..؟

أين ذهبت عقولنا عندما كنا نستلل في الخفاء مساءً لنمنح بعضنا لقاء دقائق..؟

أين ذهبت عقولنا ونحن نصمت عن حصار يخنقنا عاجزين..؟ عاجزين حتى عن الاعتراف أننا نحب..!

أين ذهبت عقولنا لنفكر أن نترك كل شيء هنا ونرحل..؟

- إذاً أنت من يدافع عنها..؟

- هي لم ترتكب جريمة لكن المسألة معلقة على عنق الحرص.

هي لم ترتكب جريمة بل زوجها دفع ثمناً لفعلته الحمقاء..

الزواج لا يعني فراشاً ومتعة..!

الزواج انتماء وامتداد لطريق البحث؛ الزواج بلاد جديدة نصعد بها إلى السماء.

- أنت الوحيد الذي تستطيع أن تجعلني أكره الأشياء التي كنت أحبها.. ليتك تعلمني كيف أكرهك.!

- وهل ستحضرين معي دروس تلك المادة؟
- ماذا سنطلق عليها..؟

مادة تجريد العشاق.؟

- لا أعلم.. ما أعمله جيداً هو أنني راسبة فيها منذ الآن؛ ولا أريد أن أنجح أبداً.

لا أستطيع أن أمضي المساء دون أن أسمع صوتك يا شامخ؛ ولا أريد أن أعيش إن كنت لا أغتسل بمطر جنونك.

- أنت أيضاً تشبهين المطر تماماً، مثل آخر لحظة سقط علينا فيها ونحن نتسلل من شوارعنا كمجرمين.
- يا مجرم أنت لا تنسى.!
- كنت تقولين: هذا المساء ممطر والضباب يحجب الرؤية؛ أخاف عليك الخروج.
- لكنك سرعان ما سألتني عن قدرتي على البقاء في المنزل لأخبرك أنني سأراك حتى لو صنع لي موت من صاعقة رعدية.. ربما حينها يدون ذلك الشارع باسمنا...!

أجبتني بصوت مبحوح وأنت تقول:

"في وطني يكرم العظماء بعد موتهم كأنهم لا يستحقون الاحتفاء بإنجازاتهم إلا بعد أن ترحل أرواحهم إلى السماء"..!

حينها توشحت بعباءة يملؤها المطر؛ وخرجت دون أن أستجيب لتحذيراتهم المتكررة.

- لن أنسى أنك جئت باكية وكذبت علي.!

- كيف عرفت ذلك.؟

- تعمدت أن يبلل المطر جسدك لتقولي لي أن ما كان في عينيك من أثره.. وليس دمعاً تسرب مع الشوق. كانت عينك حمراء والأخرى أشد احمراراً..

الارتجاف الذي كان يرتدي صدرك لم يكن برداً من الطقس؛ فنحن جانب مدفئة من جمر وناراً تشعل الدفء..

لكن سبل العناق ضاقت بك ولم تجدي مأوى يسكنك صدري سوى هذه الحيلة..

خبئتك على صدري وأنا أقول اهدئي.. حتى سمعت شهقة بكاء سقطت دون أن تشعري بانتباهي.

نظرت إليك وأنا أقول:

يبدو أنك لا زلت تشعرين بالبرد.

- يكفي يا شامخ؛ لماذا تبكيني الآن؟

لماذا تتسلق بي أغصان الأمسيات الماضية.؟

- لأن ما يمضي لا يعود أبداً.. وما يعود لا يحمل معه نكهة ما مضى..!

- ليس الآن أرجوك؛ لم ينسوا ما حصل بعد لقائنا الأخير.

- وما الذي حصل؟

- أشياء كثيرة لم أعد أفهمها..

يبحثون خلف كل صغيرة وكبيرة وكأنها أصبحت حكاية من واقع لعين؛ لا زالت والدتي تتنصت على حجرتي..

أصبح الأمر شبيهاً بمنصة خوف أقف عليها لأتجرد من الصبر؛ فأكافح البكاء بعد كل لحظة تطوف.. أثق أن ذلك يحدث من أجلي لكن إحساسي أصبح هشاً جداً..

لا تغضب يا شامخ؛ فأنا ابنتهم المدللة.. وهي تشعر منذ زمن أن إحساسي متقلب جداً بين الفرح معك والبكاء دون سبب أمامهم في الزمن الذي كانت تولد فيه اختلافاتنا؛ بالرغم من كل هذا لم أكتفي.. بل وجدت لك صورة في غرفتي وقلت لها أنك شقيق إحدى الصديقات "وئام"؛ وأنها لا تستطيع الخروج فطلبت مني أن أصنع له كعكة ميلاد توضع عليها صورته.

نظرت إلي وهي تقول:

من قال أنك سوف تخرجين؟

- ولماذا كل هاذ الحصار يا سمو؟
- لأنها على يقين بأن شيئاً ما يحدث لي؛ وأني أخفي عنها أمراً ما.
- هي والدتك وتشعر بكل ما يحدث من حولك.
- ماذا عنك؟ هل تظن أني قد أخفيت عنك شيئاً.؟
- أنا أقرأ ما في عينيك، لا تستطيعين فعل ذلك معي..

أخبرتك قبل قليل عن أنها تحدثت إلي بكل شيء أثناء المطر..

ولأنني لا أريد أن أ صنع لك فخاً من خجل؛ ابتسمت وأنا أقول لنفسي ليتك تعلمين أنني أشعر بك.

- لكنني قد أخطئ يا شامخ، أنا أنثى ولست معصومة من الخطأ..!
- الأخطاء لا تقتلنا؛ الخيبات هي التي تميتنا.

لو أن الأخطاء تقتل لما بقينا حتى الآن؛ ألا تنظرين إلى الذي يحدث من حولنا؟

أخطاء تعلن أمام الملأ ومجاهرة بالخيبات المتتالية..

يخطئ الصغير ويخطئ الكبير ويخطئ الضعيف والمسؤول ويحمل الذنب أبرياء لا شأن لهم؛ دافعين حياتهم ثمناً لها؛ ثم تنسى الوقائع كأن شيئاً لم يكن.

- أشعر أننا نعيش في حلقات من إنتاج درامي.!
- الحياة لم تنته، والحلقة الأخيرة من مسلسل العثرات لم تعرض بعد..

سنحاول كثيراً أن نمنع ذلك....

ما رأيك أن تقومي بمراسلة الجهة المسؤولة كي لا تبثها؟

- إن كان سيحدث لي مثل الذي حدث في أبريل فلا بأس.
- وماذا حدث؟
- يقال أن هناك فتاة يتيمة كانت تحتاج إلى المال لكنها تريده حلالاً دون أن تسرق أو تغني بصوتها الجميل.. تعاطفت معها صديقها ثم أعطتها مالاً يكفي لفترة زمني، وفي أبريل تحديداً اتجهت إلى أكبر بنك يملك المال..

قالت لمدير المركز بأن كل شخص هناك يستطيع أن يملك مليوناً خلال أيام قليلة..!

أدخلها إلى مكتبه الخاص وهو يسألها كيف؟

قالت لن أخبرك إلا بشرطين أن تدفع لي عشرة آلاف ثم تنتظر لعشرة أيام بعدها؛ أخبرته أنه قادر على الوصول إليها وتحديد مكانها في حال تخلفها

عن الوقت المحدد وطلبت منه أن يرسل معها رجالاً كي يتأكدوا من مقر إقامتها الذي تسكن فيه.

منحها ما تريد وخرجت لتتجه إلى بنك آخر.. حتى زارت البنوك كلها، بعد أن اكتملت العشرة أيام تزاحموا على منزلها؛ كل شخص يبحث عن السر الذي يعل من نصيبه كل هذا الثراء.

طرقوا الباب ففتحت لهم، ابتسمت وهي تقول: كل ما بالأمر أن تفعلوا كما فعلت أنا؛ وتقولوا كما قلت أنا؛ ثم لا تنسوا أن لإبريل الجميل ذكرى سنوية يحتفل بها المتمردون.. وقبل أن تمنحهم الحق في أن يقولوا حرفاً واحداً أوصدت الباب وتركتهم في فوضى الغضب يصارعون الانتظار.

- هل تظنين أنهم تركوها في حال سبيلها.؟
- اللصوص هم أطول البشر أعماراً؛ قد تكون نائمة خلف القضبان وقد تتصفح كتب العلم في دولة لا يوجد بها ماد علني للمشاعر.
- بالمناسبة.. طالما أننا نتحدث عن الكتب، هل ستشارك هذا العام؟ معرض الكتاب سيقام بعد عدة أيام.
- في كلا الحالين سأرجم بتهم إفساد المجتمع كما فعلوا معي قديماً، الغريب في الأمر أنك لم تطلبي حتى الآن أن أكتب لك قائمة بأسماء الكتب التي أرشحها لك.
- لم أنس، كنت أ؛تاج أن تفعل شيئاً دون أن أطلبه منك لكن لا فائدة، رشح لي كتابين.

- المشكلة لا تكمن في الكتب يا سمو، المشكلة في أننا لا نريد القراءة ولا الاكتشاف.
- لا تكن معقداً وتصعب المسائل؛ فقط امنحني اسم كتاب واحد الآن.
- إذاً ابحثي عن التنسيق الجميل وصورة الكاتب الوسيم وصفقي إعجاباً بما يكتبه قبل أن تقرئيه.!
- لا يعجبني أسلوب سخريتك!
- ولا يعجبني رداء الأدباء التنكري، كأنهم اجتمعوا في حفلة تنكرية لا يريد أحد منهم أن ينظر إلى الآخر ليعرف ملامحه.. مكن ممتلئ بالضجيج والناس، لكن روحة فارغة من الأدباء..

اختصري المسافة..

هنالك فرق كبير بين حب الأدب وحب امتهان الأدب.

هنالك فرق كبير بين الأديب والمستأدب.!

حتى أنت تحبين اللغة العربية الفصحى، وتحبين القراءة لكن ذلك لا يصنع منك أديبة، لازلت بحاجة القراءة أكثر..

قراءة كل أنواع الكتب، هذه الفكرة لا تسمم ذاكرتك إنها تصنع لها الحياة صدقيني.

- هل لازلت تسافر من أجل شراء الكتب؟
- وهل ألام إن أخبرتك أنني أشعر ببرود قاتل، يجعل كل شيء بي لا ينتظر كثيراً في وطنك هذا..؟
- لا تيأس، فالشمس لا تشرق كل يوم بذات وقتها الذي أشرقت فيه في الأمس.

- ليس يأساً لكنه ذبول، هو أشد خطراً يا سمو.
- لماذا تحول الهرب من أسئلتي.؟

لم أستعر من الحياة شيئاً كي أنتظر عودته إلي كحديثك..!

- هل أفهم أن حديثي دين في ذمة الحياة؟
- بل دين في ذمتك أنتن لا تتكلم عن الدين أبداً..

أنت آخر الذين يجب عليهم أن يتحدثوا عنه، أنت من تركني ورحل قبل أربعة أعوام وأنا على قيد الصمت..؟

منذ أن اتصلت هذا الفجر وأنا أساير الزمن الذي تركتني به في آخر عتبة من الموت.

تعبتك في كل كلمة قلتها إلى أن توقفنا بأحاديثنا عند هذا الحد؛ سايرتك في كل ما قلنا لأستعرض معك كم نحن بؤساء؛ هل رأيت كيف كنا..؟

وكيف أصبحنا الآن..؟

هل رأيت كيف ذبلت وعودك وعهودك؟

هل رأيت كم كنا نطوي صفحات الحزن كذباً، فقط لأننا نخاف من البكاء ونحن ندفن ذاكرتنا ببقايا النسيان....

كانت أربعة أعوام من الحسرة والوجع المحشو بالكبرياء، تغيرت فيها أشياء كثيرة؛ كثيرة جداً..

ربما أن الحمقاء التي صنعت لنفسها قبراً من الانتظار والرفض وهي تقول:

غداً قد أعرف شيئاً مختلفاً؛ شيء يعيد إلي روح الحب التي لا تعرف في غيابك إلا أن تحتضر.. لا تعرف وجهاً للحياة إلا بعد رؤية وجهك؛ ولا سبيلاً للفرح إلا صورك العقيمة من الوجود..

منذ أن اتصلت قبل ساعات وأنا أتحدث إليك، لم أبين حجم ضعفي الذي أنا غارقة فيه في الحقيقة.. لم أجعلك تشعر بأن شيئاً قد تغير بي منذ غيابك حتى بعد أن أتيت الآن.. ولم أستعرض معك كل هذه السنين.. والذي حدث فيها لأجلي أو لأجلك..

لا، بل كان من أجل سؤال تجرعت علقم عقمه.

صدقني، أنا أنثى لم تكن لها بصارة تقرأ الكف كي تسكت..

ولا أرض تنتشلني عن أوطاني المجردة من الحياة

أنا أنثى تسجن نفسها خلف قضبان الحنين، كلما طرق العطش بابها أسقته من حبر الذكريات..

وكلما تضور الفقد جوعاً قطفت من ثمر غيابك لأضعه في فمي...

تعلمت في بعدك أن أحبك لأكرهك، وأن أموت منك قبل أن أموت بك..

تعلمت أن لا أفتح نوافذ إحساسي إلا على الجهة المؤدية إلى الموت؛ أنا أنثى لا صوت لها إلا في ضحكتها..

وإني خائفة على نفسي عندما أقف أمام الله وأنا التي لم تغتسل من ذنب ضحكاتها الكاذبة..

ترددها في وجوههم كل يوم بعد كل صلاة وهي لا تمت للصدق بصلة.!

من يحمل لي قدمي التي سقطت الآن.؟

أنا أنثى مشلولة لا تستطيع عبور المدن لتعود إلى أرضها يا شامخ..

ولا تستطيع الوقوف لتموت قهراً.

أنا أنثى لم تخن وطنها.

ولم تشرك بربها.

ولم تكفر بحبها.

لكنها ارتكبت خطيئة عربية أشبعتها من سم الندم العتيق بعد أن أحبتك كثيراً.

أنا الآن أنثى لا تملك شيئاً، فارغة من الحياة، ومحاطة بكل جهات الذبول.

لم تترك لي حتى سبباً أجبر به كسري.

لم تضع لي في آخر الطريق ذرة ملح أسد بها جرحي الذي نزف من دم الحب.

سافرت دون أن تأخذني معك، وتركتني ساقطة على فراش الخذلان متدثرة بغطاء البكاء..

تركتني كجارية أمضت العمر عند قدمي أمير ظالم؛ جردها من ألوان الحياة دون أن تنتهي.

لا أستطيع أن أقول لهم: أبكي متعبة لأنني أحببت رجلاً لسنين طويلة؛ اتصل بي ذات مساء ليخبرني أنه سيرحل بعيداً.

سيرحل من دوني.

وسيبتسم من دوني.

وسيكبر أربعة أعوام من دوني.

كان يقول لي سأغيب أربعة أعوام فقط..

وأنا أجهل كل شيء إلا صوت صراخ خلف مكانه الذي يتحدث إلي منه.

كان يشعر بالحسرة وهو يقول لا تسأليني إلى أين سأذهب..

لكن ثقي أنني ذهبت وحدي دون أن آخذك برفقتي لأنني أبحك جداً..!

مات الحديث داخلي دون أن أجد حائطاً أسند عليه ظهري، وما إن وجدته حتى سقط علي وهشمني.

ماذا أفعل بي الآن وأنا حطام لا يستطيع أن يجمعه بشر..؟

ماذا أفعل بي وأنا سنبلة غرسوها في قاع البحر ينتظرون ثمارها..؟

ماذا أفعل بي وأنا رماد يسأل الشمس عن وقت عصف الريح.؟

لماذا عدت إلي..؟! بعد أربعة أعوام من افتراشي للانكسار..؟

لماذا لم تترك لي سبباً يبلل شفتي بعد جفاف الصبر؟

لماذا لم تترك لي سبباً يحمي أقدامي من شوك الفقد..؟

لماذا عدت وأوقدت نار الحزن من جديد..؟

لماذا يا شامخ؟ لماذا الآن تحديداً..؟

- سأخبرك لماذا حدث ذلك بأكمله، لكن لا تتوجعي من صوت نحيب السنين.

لم أكن يوماً صالحاً لزرع الخيبة في قلب أحدهم، لكنني رحلت لأنني فكرت بتعرية الحزن من جسدي وجسدك بعد كل جلدة من سياط رغباتنا..

رحلت لأنني خائن شذ عن أولئك الذين يصفقون وهم يصنعون ابتسامة عريضة.

رحلت لأنهم وجدوا لي تهمة في صحيفة أيامي عندما دونوها سابقة سوداء لرجل يسكن تحت جسور الحب.

رحلت لأنهم وجدوا العشق مركوناً في زوايا الزمن الذي جمعنا يا سمو!

ولأنني لم أضع العمر في خزانة الخوف، لأنني لم أخش من الموت كما كنت تفعلين..

كنت أتحدث معك وأنا مجرد من ألوانا لحياة.

مزقوا أحلامي المهترئة....

طعنوا صدر الأمل في جسدي الأحدب؛ حتى حاولت أن أخيط جرح السنين، لكن غرز الخياطة تسقط بعد كل عملية أقوم بها..

كنت أفهم أن الاقتراب من النار يهبنا الاحتراق، لكنني اقتربت منك بقلب أعمى.

ظننت أن الحب وحده يكفي في هذه البلاد، وعرفت بعد أعوام طويلة أن الحب يقودنا إلى تشويه تاريخنا بالذل والهوان في هذه الأرض فقط.

صدقيني لم أتصل لأجل أن أستعرض كل هذه السنين التي انقضت، فأنت لا تعلمين ما حدث خلف كواليس غيابي "ومن أجلك لن أتحدث الآن".

قد أقتل صمتي لكن ليس الآن.. ربما بعد زمن طويل.

سمو، قد أكون مجنوناً وقد لا أكون، لكن هل لك أن تعيدينني إلى المقهى القديم لتأمري سائقك أن ينزل فيفتح لك الباب..

ثم تأتين وتمنحيني قطعة الكتاب التي كتبت فيها رقمي وفي جهتها الأخرى تسكن هذه الجملة:

"نحن في الحب لا ندرك أننا نفتح الأبواب؛ لا ننتظر السماح من أحد لندخل ولا نستطيع اختيار وقت الخرو...".

أريد أن أضع حرف الـ "ج" آخرها وأغلق الكتاب..

أعدك أنني لن أقرأ قرب المقهى ثانية.

وأنت عاديني أن لا تسيري قرب المقهى وأنت كاشفة وجهك..

ليس من أجلي، بل لأن الشرع الذي تسير على نهجه جدة أقل تشدداً من الشرع الذي تسير على نهجه الرياض..!

الآن؛ هل لك أن تقتلي وجع سنيني الأربعة بإجابة يجتاح سؤالها الرجاء..؟

انحري عنق الصبر منذ سنين وأجيبيني يا سمو:

هل كنت مجنوناً حقاً.؟

سمو أجيبي.. هل كنت مجنوناً حقاً..؟

سمو هل أنت معي!!

سمو..

على ل حال سأستر عورة هذا الشح في حقيقة جنوني؛ سأنام وحيداً أسأل الشارع عن ذلك كل مساء.. سأعلق على صدر الأحلام تمائم الرجاء وأنسدل من نفسي كل مرة لأتخذ حجة ليتم سؤالي؛ كنت أعلم أن محفظة التاريخ تؤذي ما ينسى بذاكرتها دون أن أعلم لماذا؛ أصبحت الآن ولأول مرة في حياتي بحاجة إلى أن أخرج ذاكرتي من محفظة التاريخ.. أضعها في خزانة النسيان وأعزلها عن هذا العالم المسموم بالصمت؛ أخبئها في زاوية لا يتسلل إليها النور وأكتب عليها من الأعلى:

"لا يدرك الإنسان كم هو قادر على اختزال مشاعره في معركة الحب إلا حين يمارس طقوس جنونه في كتابة ما يسكن هوية الانتماء داخله".

ثم أغلق عليها الباب وأنام وحيداً إلى الأبد..!

معجب الشمري